


العدد: ٨١ المحرم ١٤٢٢هـ السنة الحادية والعشر

# نحن والحضارة والشهود

## الجزء الثاني

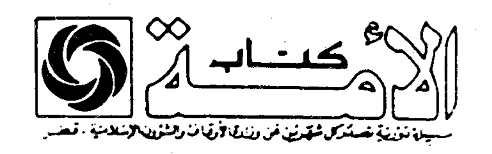
الدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي

الطبعـة الأولى
المحرم ١٤٢٢ هـ
آذار ( مارس ) – نيسان ( إبريل ) ٢٠٠١م

نعمان عبد الرزاق السامرائي
نحن والحضارة والشهود ( ٢ )
الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠١م .
١٥٢ص ، ٢٠ سم -( كتاب الأمة، ٨١ ) .
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية : ٤٦ / ٢٠٠١
الرقم الدولي ( ردمك ) : ٠ – ١٦ – ٤٨ – ٩٩٩٢١
أ . العنوان ب . السلسلة .



موقعنـا على الإنتـرنت:
www.islam.gov.qa
البريد الإلكتروني :E-Mail
M_Dirasat@Islam.gov.qa




صدر منه :

- **مشكلات في طريق الحياة الإسلامية**

« طبعة ثالثة » ـ الشيخ محمد الغزالي

- **الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف**

« طبعة ثالثة » ـ الدكتور يوسف القرضاوي

- **العسكرية العربية الإسلامية**

« طبعة ثالثة » ـ اللواء الركن محمود شيت خطاب

- **حول إعادة تشكيل العقل المسلم**

« طبعة ثالثة » ـ الدكتور عماد الدين خليل

- **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري**

« طبعة ثالثة » ـ الدكتور محمود حمدي زقزوق

- **المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري**

« طبعة ثالثة » ـ الدكتور محسن عبد الحميد

- **الحرمان والتخلف في ديار المسلمين**

« طبعة ثالثة + طبعة إنجليزية » الدكتور نبيل صبحي الطويل

- **نظرات في مسيرة العمل الإسلامي**

« طبعة ثانية » ـ الأستاذ عمر عبيد حسنه

- **أدب الاختلاف في الإسلام**

« طبعة ثانية » ـ الدكتور طه جابر فياض العلواني

- **التراث والمعاصرة**

« طبعة ثانية » ـ الدكتور أكرم ضياء العمري

- **مشكلات الشباب : الحلول المطروحة والحل الإسلامي**

« طبعة ثانية » ـ الدكتور عباس محجوب

- **المسلمون في السنغال ـ معالم الحاضر وآفاق المستقبل**

« طبعة أولى » ـ الأستاذ عبد القادر محمد سيلا

- **البنوك الإسلامية**

« طبعة أولى » ـ الدكتور جمال الدين عطية

- **مدخل إلى الأدب الإسلامي**

« طبعة أولى » ـ الدكتور نجيب الكيلاني

- **المخدرات من القلق إلى الاستعباد**

« طبعة أولى » ـ الدكتور محمد محمود الهواري

- **الفكر المنهجي عند المحدثين**

« طبعة أولى » ـ الدكتور همام عبد الرحيم سعيد

- **فقه الدعوة ملامح وآفاق في حوار**

الجزء الأول والثاني « طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الأستاذ عمر عبيد حسنه

- **قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر**

« طبعة أولى » ـ الدكتور زغلول راغب النجار

- **دراسة في البناء الحضاري**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور محمود محمد سفر

- **في فقه التدين فهماً وتنزيلاً**

الجزء الأول والثاني « الطبعة الأولى »+طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عبدالمجيد النجار

- **في الاقتصاد الإسلامي (المرتكزات - التوزيع - الاستثمار - النظام المالي)**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور رفعت السيد العوضي

- **النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية - دراسة مقارنة**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور محمد أحمد مفتي والدكتور سامي صالح الوكيل

- **أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور أحمد محمد كنعان

- **المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور عبد العظيم محمود الديب

- **مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - نخبة من المفكرين والكتاب

- **مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

- **إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

- **الصحوة الإسلامية في الأندلس**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور علي المنتصر الكتاني

- **اليهود والتحالف مع الأقوياء**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي

- **الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الأستاذ منصور زويد المطيري

- **النظم التعليمية عند المحدثين**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الأستاذ المكي أقلاينة

- **العقل العربي وإعادة التشكيل**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور عبد الرحمن الطريري

- **إنفاق العفو في الإسلام بين النظرية والتطبيق**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور يوسف إبراهيم يوسف

- **أسباب ورود الحديث**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور محمد رأفت سعيد

- **في الغزو الفكري**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح

- **قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي**

الجزء الأول والثاني « طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور أكرم ضياء العمري

- **فقه تغيير المنكر**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور محمد توفيق محمد سعد

- **في شرف العربية**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور إبراهيم السامرائي

- **المنهج النبوي والتغيير الحضاري**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ برغوث عبد العزيز بن مبارك

- **الإسلام وصراع الحضارات**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور أحمد القديدي

- **رؤيـــة إسلاميـــة في قـضـايـــا معاصـــرة**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور عماد الدين خليل

- **المستقبل للإسلام**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور أحمد علي الإمام

- **التوحيد والوساطة في التربية الدعوية**

الجزء الأول والثاني « طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ فريد الأنصاري

- **الإسلام وهموم الناس**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ أحمد عبادي

- **التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور عبد الحليم عويس

- **عمرو بن العاص.. القائد المسلم.. والسفير الأمين**

الجزء الأول والثاني « طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - اللواء الركن محمود شيت خطاب

- **وثيقة مؤتمر السكان والتنمية.. رؤية شرعية**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور الحسيني سليمان جاد

- **في السيرة النبوية.. قراءة لجوانب الحذر والحماية**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور إبراهيم علي محمد أحمد

- **أصول الحكم على المبتدعة عند شيخ الإسلام ابن تيمية**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتورأحمد بن عبد العزيز الحليبي

- **من مرتكزات الخطاب الدعوي في التبليغ والتطبيق**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ عبد الله الزبير عبد الرحمن

- **عبد الحميد بن باديس رحمه الله وجهوده التربوية**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الأستاذ مصطفى محمد حميداتو

- **تخطيط وعمارة المدن الإسلامية**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الأستاذ خالد محمد مصطفى عزب

- **نحو مشروع مجلة رائدة للأطفال**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور مالك إبراهيم الأحمد

- **المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور سالم أحمد محل

- **من فقه الأقليات المسلمة**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الأستاذ خالد عبد القادر

- **الاجتهاد الجماعي في التشريع الإسلامي**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عبد المجيد السوسوه الشرفي

- **النظم التعليمية الوافدة في أفريقيا .. قراءة في البديل الحضاري**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور قطب مصطفى سانو

- **إشكاليات العمل الإعلامي .. بين الثوابت والمعطيات العصرية**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور محي الدين عبد الحليم

- **الاجتهاد المقاصدي .. حجيته .. ضوابطه .. مجالاته**

الجزء الأول والثاني « طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور نور الدين بن مختار الخادمي

- **القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الأستاذ عبد المجيد بن مسعود

- **أضواء على مشكلة الغذاء في العالم العربي الإسلامي**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الأستاذ عبد القادر الطرابلسي

- **نحــو تقـــويم جـديـد للكتــابة العــربيــة**

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الأستاذ الدكتور طالب عبد الرحمن

- **دور المرأة في رواية الحديث في القرون الثلاثة الأولى**

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الأستاذة آمال قرداش بنت الحسين

- **الإعــــلان مــن مـــنـــظـــــور إســـــلامــي**

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور أحمد عيساوي

- **تكــــويـــن الملــــكــة الفــقــهــيــة**

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الأستاذ الدكتور محمد عثمان شبير

- **الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري.. أنموذج مالك بن نبي**

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الأستاذ بدران بن مسعود بن الحسن

- **الترويح وعوامل الانحراف.. رؤية شرعية**

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الأستاذ عبد الله بن ناصر السدحان

- **فقه الواقع.. أصول وضوابط**

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الأستاذ أحمد بوعود

- **دعوة الجماهير.. مكونات الخطاب ووسائل التسديد**

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عبد الله الزبير عبد الرحمن

- **المصطلح خيار لغوي وسمة حضارية**

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الأستاذ سعيد شبار

- **عــــالم إســـــلامــي بــلا فــقــر**

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور رفعت السيد العوضي

- **نحـن والحضـارة والشهـود (الجزء الأول)**

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي

قال تعالى:

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ . . .﴾

(الحج: ٧٨)

# تقديم

## بقلم: عمر عبيد حسنه

الحمد لله الذي جعل القرآن شاهداً على الكتب السماوية السابقة، وجماع رسالاتها، ومحققًا الاكتمال والكمال لتاريخ النبوة، ومؤكداً لوحدتها، مصوبًا لمسيرتها، ومبينًا علل التدين التي لحقت بأصحابها وكانت سبب سقوطهم، ليكون ذلك بيانًا وهدى وموعظة وتقوى للأمة الخاتمة التي لا يتحقق شهودها ما لم تتعرف على قوانين الحركة التاريخية وسنن السقوط والنهوض الحضاري.

كما جعل الرسول ﷺ شاهداً على الأمة المسلمة والأمم السابقة بما نيط به من البيان للهيمنة والشهود القرآني.

وجعل الأمة المسلمة، بما تؤمن به من قيم القرآن والبيان النبوي وتتمثل بهما، شاهدة على الأمم، شهوداً تاريخيًا من خلال عطاء القصص القرآني، وشهوداً واقعيًا من خلال تقويمها للحاضر بقيم القرآن والبيان النبوي، وشهوداً مستقبليًا من خلال بيان معالم طريق النجاة والصراط المستقيم ووضع الضوابط التي تحمي السائر من السقوط حتى لا يضل ولا يشقى.

والصلاة والسلام على النبي الخاتم، الذي جاء بمقومات الشهود التاريخي والمستقبلي، فورث النبوة والكتاب، وتوقف تاريخ النبوة عند

بعثته، وجُعلت معايير ومقومات الشهود التي جاء بها خالدة مجردة عن حدود الزمان والمكان والأشخاص.. وبعد:

فهذا (كتاب الأمة) الحادي والثمانون: (الجزء الثاني) من كتاب (نحن والحضارة والشهود)، للدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي، في سلسلة الكتب التي يصدرها مركز البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر، في محاولة لمعاودة إخراج الأمة المسلمة، وإحياء رسالتها الإنسانية، والمساهمة في استرداد الدور المنوط بها من الوعي بذاتها والشهود على نفسها، والوعي (بالآخر)، محل الشهود والدعوة، والوعي بمعايير ومقومات الشهود، والعودة بالأمة إلى موقع الوسطية بكل مدلولاته وأبعاده الإيجابية غير المنحازة، التي تعيد التوازن وضبط النسب وتحمل ميزان الاعتدال، استجابة لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة:١٤٣).

فهذا الجَعْلُ من الله، أو هذا الموقع الحضاري والثقافي الوسط، وهذه النبوات التاريخية التي توحدت بالرسالة الخاتمة: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ (المؤمنون:٥٢)، التي أكدت وتمحورت حول الوحدانية لله عز وجل، التي ألغت الآلهة المزيفة، وأوقفت تسلط الإنسان على الإنسان، منبع الشر والفساد الحضاري...

هذا الجعل الوسط، بكل آفاقه وأبعاده ومقتضياته، هيأ الأمة المسلمة

لأهلية تحمل الشهادة على الناس، وأهلية أدائها لهم، ليستقيم أمرهم.
ذلك أن النكوص عن هذا التحمل، والقعود عن هذا الأداء، يترتب عليه مسؤوليات جسام، ويكون سبيلاً لإشاعة الفساد في الأرض، والخراب الحضاري، وظهور الآلهة المزيفة والأنبياء الكذبة، وعودة أصول الشر الكامن في تسلط الإنسان على الإنسان، وإهدار إنسانية الإنسان وكرامته، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (الأنفال:٧٣).

إن الكفر في حقيقته، هو عدول عن الإيمان بالله والتلقي عنه إلى آلهة أخرى.. فإذا لم يحقق المسلمون الشهود الذاتي بكل مقتضياته، من موالاة لله تعالى، ورسوله ﷺ وموالاة للذين آمنوا، ونكلوا عن الحمل، كان ذلك إيذانًا بفتح باب الشر والفساد والسقوط الحضاري: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (الأنفال:٧٣).

ذلك أن درء الفتنة عن الأرض، والحيلولة دون الفساد الكبير، يقتضي بروز قوامة العدل، وشهادة العدل، وأمة العدل، وهذا منوط إلى حد بعيد بوعي الأمة المسلمة لذاتها، ووعيها لرسالتها، وأبعاد مستلزمات شهادة الرسول ﷺ عليها، لتصويب طريقها وتأهيلها للشهادة الإنسانية، ووعيها بالناس الذين كُلفت بالشهادة عليهم، يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ...﴾ (المائدة:٨)، ويقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (النساء:١٣٥).

إن أعباء هذا الجعل الوسط ومسؤولياته وما يتطلبه من القوامة المستمرة على حماية قيم الأمن والحق والعدل، واحترام حقوق الإنسان، وتحقيق كرامته، لمجرد كونه إنسانًا مهما كانت عقيدته، استجابة لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء:٧٠)، والاضطلاع بأعباء هذا الجعل الوسط غير المنحاز عن قيم الحق والعدل، وحسن القيام بأعباء الاستخلاف الإنساني، أو بتعبير آخر: تجسيد قيم النبوة واعتماد معاييرها في التعامل مع الذات و(الآخر)، هو الذي يؤهل الأمة لهذه الوسطية وهذه الشهادة والقيادة والحراسة لتلك القيم الإنسانية.

وقد يكون المطلوب باستمرار تحرير معايير الشهود الحضاري، وإبصار مقوماته، والاجتهاد في وضع البرامج والآليات لحسن ممارسته وفك احتمال تلبسه بالأشخاص والأجناس والأقوام...إلخ، بحيث تبقى هذه المعايير قيمًا مجردة منفتحة على بني الإنسان جميعًا، يمكن التحلي بها والتعامل معها واختيارها من قبل الجميع، لأنها في حقيقة الأمر ليست حكرًا على أحد، وبالتالي تصبح من حق الجميع ابتداءً،

ومن واجب الجميع حراستها من الانتحال والانحراف أو التأويل الباطل في نهاية المطاف.

إذ لا يمكن أن نتصور بحال من الأحوال أن يكون الإنسان، بأنشطته المتعددة ورغباته ونزواته وتطور إمكاناته المستمر، وما يعرض له من السقوط والنهوض، هو المعيار والشاهد على نفسه وعلى الآخرين، لأنه بذلك يصبح المعيار وموضوع المعايرة في الوقت نفسه، إضافة إلى أن الله قد خلق الخلق كلهم وكأنهم يعيشون على مائدة مستديرة، متساوين في الحقوق والواجبات الإنسانية، لا يرى أحدهم فضلاً لأحد على آخر.. فكيف يمكن لإنسان أن يقبل وضع القيم المعيارية لسلوكه ونشاطه من قبل إنسان آخر يماثله؟ وما هي الضمانات ألا تكون تلك القيم وسيلة للتسلط والاستبداد؟

فإذا كان الإنسان عاجزاً عن وضع المعايير لنفسه، التي تتقلب في الرغبات والرهبات والنزوات والإمكانات والظروف المحيطة والضغوط المختلفة، الأمر الذي يضطره إلى تغيير أحكامه ومعاييره والحكم بقصورها أحيانًا ونقضها في أحيان أخرى، فأنى له أن يضع معايير لغيره؟

يضاف إلى ذلك أن منبع الشر في التاريخ البشري كان كامنًا في تسلط الإنسان على الإنسان، حيث أخذ هذا التسلط أشكالاً متعددة، من اللون والقوم والطبقة والجنس والدين (رجال الدين في الحكم الثيوقراطي) والحزب والقبيلة... إلخ.. وأن هذا التسلط كان ولا يزال

هو سبب البلاء والوباء الحضاري، وأن إنسانية الإنسان لا يمكن أن تتحقق وتسترد ما لم يوقف هذا التسلط، وتصبح المعايير الحاكمة والقيم المقومة للسلوك تستمد من جهة أخرى، خارجة عن سيطرته ووضعه أصلاً.

لذلك نقول: بأن عملية الشهود الحضاري على الذات و(الآخر) تتطلب قيماً ومبادئ ومعايير مستمدة من مصدر آخر، يتساوى الناس أمامه، ولا يملك أحد الحق فيها دون آخر إلا من يؤمن بها ويعمل لها، والإيمان بها متاح للجميع.. إنها قيم النبوة الخالدة، الثابتة، المستمدة من خالق الإنسان، الذي يعلم خصائصه وطاقاته وغرائزه وحاجاته وما ينفعه وما يضره، قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الملك:١٤).

فالعلم بالإنسان، والخبرة به، لا يحيط بها إلا خالق هذا الإنسان، ونصيب الإنسان من هذا العلم لا يؤهله لوضع المعايير.

لذلك نعتقد أن التحقق بهذا الجعل الوسط، الذي يؤهل للشهادة على الذات و(الآخر)، بحاجة دائماً للتقويم والمراجعة للمحافظة على سلامة المعيار، وعدم تلبسه بالأشخاص، واكتشاف الخلل، وتحديد أسبابه، وتصويب المسار، وهذه هي الشهادة على الذات التي تؤهل للشهادة على (الآخر).

والمعروف أن الشاهد من حيث الخصائص والصفات، أو أهلية

الشهادة المعتمدة وصفاتها هو كالقاضي، سواءً بسواء.. فالشاهد في بعض أبعاد الشهادة هو قاض، بكل ما يتطلب القضاء من خصائص وصفات في القاضي، وما يتطلب من معرفة بالمعايير القانونية التي تحكم على الحادثة بأنها جريمة وخروج غير مشروع، أو هي تقع ضمن العمل المشروع، فإذا سقطت العدالة أو خرمت الكفاءة سقطت أهلية الشهادة، فأصبح غير مؤهل لتحمل الشهادة ولا لأدائها.

وفي تقديري، أن الأمة المسلمة، باعتبارها أمة الفكرة أو أمة العقيدة، حيث إن كل من يؤمن بهذه العقيدة ويتحقق بهذا الخيار فهو منسلك في الأمة الوسط الشهيدة، مهما كان جنسه أو لونه أو قومه أو جغرافيته، بعيداً عن الانغلاق والتعصب والتميز، مؤهلة بهذا الاعتبار، وهذا الخيار، وهذه الموازين للكرامة والتأهيل، لحمل الشهادة وأدائها.

نعود إلى التأكيد، أن القيم والمعايير، المستمدة من خالق الإنسان، العالم بكينونته وحاجاته ونزواته وشهواته وأهوائه، المجسدة في سيرة النبوة وبيانها، بعيداً عن وضع الإنسان وعبث الإنسان، واستغلال الإنسان، مؤهلة لأن تكون معايير الشهود على الذات و(الآخر). لذلك فالقيم المستمدة من النبوة لا يمكن إلا أن تكون واقعية، قابلة للتطبيق، حيث تعتبر مناط التكليف هو استطاعة الإنسان وفطرته واستعداداته.

إن قيم الشهادة والشهود والتجربة التاريخية، التي تجسدت في حياة الناس، بمختلف أحوالهم وأوضاعهم وأجناسهم، فأنتجت حضارة

لبني الإنسان جميعًا، هي قيم ومعايير واقعية غير خيالية أو طوباوية مثالية غير قابلة للتطبيق، لذلك فهي باستمرار مؤهلة للشهود والشهادة على الناس .

فالقيم التي تعتبر الخيار وعدم الإكراه مرادفًا لإنسانية الإنسان وكرامته، هي قيم مؤهلة للحكم والشهادة والقيادة للناس.

والقيم التي استوعبت الحركة الحضارية التاريخية، وقدمت قوانين وأسبابًا وسننًا لسقوطها ونهوضها، وانتهت إليها أصول النبوات السابقة، واستصحبت الصواب من تاريخ الإنسانية وتجاربها، وحددت مواطن الخلل، وحررت المعايير في الانحياز، مؤهلة للشهادة على الذات و(الآخر).

وحسبنا أن نقول: بأن المساواة والعدالة، وحرية الاختيار، والشورى في اختيار الحاكم وإدارة شؤون الحكم، وإيقاف تسلط الإنسان على الإنسان، وإقامة حراسة بإيقاظ الوازع من داخل النفس، ووضع تشريع ملزم من خارج النفس لضبط المسيرة، هي قيم جديرة بالشهادة على الذات و(الآخر).

من هنا نقول: إن مصدرية هذه القيم وخصائصها، هو الذي مكنها من البقاء والاستمرار والقدرة على الإنتاج في عصور متعددة وشعوب متعددة وجغرافيا متعددة، بحيث لا تستطيع أمة أن تدعي لنفسها هذه القيم إلا بمقدار ما تلتزم بها وتحملها (للآخر) لإنقاذه من أزماته، واسترداد إنسانيته.

إن من المسلمات التاريخية أن الحضارات والأمم بقيمها وأفكارها القادرة على الإنتاج في كل الظروف والإمكانات، وليست بعالم الأشياء المادية، وأن عالم الأفكار إذا بقي سليمًا معافى ومحفوظًا، يؤهل الأمة التي تحتفظ بتلك القيم باستمرار لإمكانية معاودة النهوض، ولا أدل على ذلك من القيم الإسلامية الحضارية التي استطاعت باستمرار أن تنتشل الأمة، وتحميها من الموت، وتدفعها إلى معاودة النهوض والإقلاع الحضاري.

ولعل من الملفت أن سنن التداول الحضاري، أو الدورات الحضارية، التي حكمت الحضارات جميعًا، سقوطًا، ونهوضًا، وهي سنن ثابتة لا تتغير ولا تتبدل: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾ (فاطر:٤٣)، لم تنج منها الحضارة الإسلامية، لأنها قانون الحركة التاريخية، الذي أكده القرآن، كتاب الأمة المسلمة، في شهوده التاريخي.. إلا أن القيم الإسلامية، أو عالم الأفكار المستمدة من النبوة، كانت شاهدة على الأمة المسلمة، فمكنتها من اكتشاف الخلل ومعاودة النهوض حال السقوط، وكانت شاهدة ودافعة للشهادة على (الآخر).

لقد لحقت سنة التداول الحضاري بعالم الأشياء في الأمة المسلمة، كغيرها من الأمم، عندما غابت شهادتها على نفسها، ولكنها لم تصب

عالم الأفكار والقيم، لأنها ليست من وضعها، وليست ملكًا لها، وبقي الإمكان الحضاري كامنًا في عالم أفكارها، في قيمها.

وبمجرد أن تتمكن الأمة المسلمة من إعادة التعامل مع عالم أفكارها، وتقويم واقعها بقيم الكتاب والسنة، وتحديد مواطن الخلل وأسبابه، لاتلبث أن تعاود النهوض، الأمر الذي لم يتحقق لسائر الحضارات البشرية التي سادت ثم بادت وتحولت من شاهد إلى مشهود.

والحقيقة التي لا بد من التذكير بها هنا، هي أن الكلام عن القيم وعظمتها وخلودها، وبعدها عن وضع الإنسان وعبثه، واستجابتها لحقائق الحياة والحاجات الإنسانية الأصلية، ومراعاتها للفطرة وعدلها، وما إلى ذلك، لم يدع استزادة لمستزيد في الأدبيات الإسلامية المعاصرة، وكأن ذلك في بعض مراحله أصبح نوعًا من التعويض والاحتماء، بينما يجب أن يتحول الكلام - في تقديرنا- في معظمه إلى كيفية الشهادة على الذات التي تؤهل للنهوض والشهادة على (الآخر).

إن تحديد مواطن الخلل، وإعادة تقويم الذات بقيم الإسلام، ووضع البرامج والآليات لذلك، أصبح ضرورة حضارية، ذلك أن عظمة هذه القيم لا تتناسب مع خيبة واقع الأمة التي تُنسب إلى هذه القيم.

إن عدم الشهادة على الذات، وإعادة تقويمها بقيم الإسلام، نوع

من الخيانة الحضارية للذات و(الآخر)، ومحاصرة للقيم نفسها، وعزلها عن الحضارة والشهود الحضاري.

وقد لا نحتاج إلى التأكيد أن قيم الإسلام بعد هذه الرحلة الحضارية والتجربة التاريخية والإنجاز الحضاري، لم تعد بحاجة إلى شهادتنا عليها، وإنما نحن بحاجة لشهادتها علينا.

إن خيانة الحضارة الإنسانية، فتح للباب أمام الفساد الكبير والفتنة في الأرض، ووقوع في المسؤولية الكبرى، وعطالة حضارية في عدم الاستجابة لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (الأنفال: ٧٣).

إن غيبة الشهادة على الذات، التي تقود إلى الشهادة على (الآخر)، تؤدي إلى مسؤولية كبرى.. فإذا كان من خصائص الأمة المسلمة الشهادة على الناس، فإن النكوص والغياب عن هذه الشهادة إضاعة للحق والعدل والأمن، وإيذان بالسقوط الحضاري البشري.

وفي هذا الجزء الثاني من الكتاب، الذي يعتبر استكمالاً للجزء الأول، الذي حاول الباحث فيه أن يعرض لقصة الحضارة، والعوامل المؤثرة في التحضر، ويرصد مسارات حركة التحضر، ويقدم نبذاً عن الرؤى المتعددة والرئيسة لدورات التحضر، على المستوى الإسلامي والمستوى العالمي، وأشهر المذاهب والتفسيرات لحركة الحضارة والفعل

الاجتماعي، مما يكاد يشكل مسحًا للمكتبة الحضارية إلى حد بعيد، يمكن أن يكون أحيانًا تجاوز فيه الاقتصار على الإحالة إلى المراجع إلى إثبات الكثير من المساحات المقتبسة منها، ولعله أراد بذلك التقدم بخطوات أكثر باتجاه القارئ ، حيث قد يُرى أنه لابد أن يترك لجهده وتفكيره استكمال بعض الجوانب ليكون القارئ شريكًا في العملية الثقافية.

لقد حاول الباحث في هذا الجزء -ما أمكن- الإحاطة بالرؤية الإسلامية، والتوقف عند بعض خصائصها وأبعادها المتفردة، التي أهلتها للشهود الحضاري على الذات و(الآخر).

ولعل من الأهمية بمكان أن نوضح، أن ملف الشهود الحضاري ملف مفتوح ومستمر استمرار التاريخ على الأرض، بكل ابتلاءاته، وهو محتاج بطبيعته لاستكمال شعبه المعرفية وأدوات بحثه واستصحاب قيم الوحي لهداية العقل.. وسوف لا يغلق، ولا تتوقف الشهادة والمسؤولية الحضارية، حتى تتوقف الحياة، بكل مناشطها وتضاريسها وسقوطها ونهوضها.. وستبقى قيم النبوة الخالدة الثابتة البعيدة عن وضع البشر وعبثهم وأهوائهم، هي الشاهد على البشر جميعًا، سواء في ذلك أمة الاستجابة أم أمة الدعوة.

والحمد لله رب العالمين.

# الله تعالى، الكون، الإنسان، الشهادة على الناس

## أولاً: الله تعالى وصفاته

إذا نظر الإنسان فيما حوله، فماذا سيجد؟ نفسه والكون «الطبيعة» من حوله.. فإذا تساءل: من خلق الكون وما فيه؟

أنا خلقت نفسي وما حولي؟! الكون خلقني وما حولي؟! من نظم الكون، من جعله يسير وفق سنن تضبط حركته، وتمنع خرابه؟ لا يتصور عاقل أنه خلق نفسه ولا غيره ولا الكون.

إذن لا بد أن يكون الخالق «قوة» ثالثة، حية مريدة عاقلة مسيطرة، وهي الله تعالى.

قد يعترض إنسان فيقول: هذه ليست طريقة علمية في الإثبات أو الاستدلال. «نعم إن العلوم لا تثبت ولا تنفي العالم الروحي، رغم أنها تعالج وتفسر الكثير من الظواهر، التي تحدث في الطبيعة والكون، والتي تكون مبنية على أساس فلسفي بحت.

من هنا علينا أن نلتزم بالجانب العلمي، مع الاستدلال المنطقي الصرف، حيث يكون ما نتوصل إليه سليماً وصحيحاً، من ناحية الاطمئنان العقلي في المفاهيم اللامرئية. فعندما يكشف لنا العلم

بأن هناك عشرات من الحقائق لا تخضع إلى أي تفسير مادي صرف، فالمطلوب هو الاستدلال المنطقي لتلك الحقائق، ونختزل منها:

١- إن سلوك أي جزء في المادة، هو سلوك منتظم دقيق، ولا يمكن أن يكون في تخبط عشوائي قط.

٢- جميع الكواكب والنجوم والأجرام الأخرى، موزعة توزيعًا في غاية الدقة، وغاية الانتظام الصارم الجميل، في سائر الكون.

٣- محال أن يكون نشوء الخلية من المادة ذاتها، لأن الجزيء البروتيني الواحد يحتوي على ( ٤٠,٠٠٠ ) ذرة، وعدد العناصر الكيماوية في الطبيعة هي ( ٩٢ ) فقط، إذن يتطلب ذلك زمنًا خياليًا، بغية نشوء جزيء بروتيني واحد يكون أكبر من عمر الكون، بملايين المرات.

لذا يتوجب علينا أن نتخذ الاستدلال المنطقي، في التحليل العقلي، لأية محصلة يصل إليها العلم، ومن تلك المحصلات ندرك بأن هناك « خالقًا عظيمًا » قدر كل شيء فأحسن تقديره، وعلينا أن لا نضع رؤوسنا في الرمال، ونتوحل في المادة، تحت رداء علمي، حصيلته النهائية ليست فيه.

إنه يتوجب علينا أيضًا أن نسلم بوجود خالق حكيم، دبر كل

شيء، وقبل تسليمنا بحقائق العلم، والاستدلال المنطقي، نكون قد وفقنا بالحفاظ على العلم والفلسفة، وبالتالي لا يوجد هناك تناقض ما في نفي حقيقة ما، بل إن كل الحقائق تشهد على حقيقة الحقائق، ألا وهو الله الخالق.

إن التطور العلمي تجاه الكون، قد برهن بصورة قاطعة وجلية على وجود الله الواحد الخالق»[1].

لقد افتتح الروس معهداً في موسكو، كان يستهدف تصنيع خلية حية، وبعد جهود متواصلة جاوزت نصف قرن، لم يستطع العاملون بالمعهد، سوى شطر خلية إلى نصفين.

كان الإلحاد عملاً فردياً، لكن الشيوعيين جعلوه هدفاً، وسخروا كافة إمكانات الدولة لذلك، هذا أمر جديد على العالم.. لقد كان الإلحاد موقفاً شخصياً، فصار موقفاً رسمياً، تسخر له ميزانية دولة، بكافة قدراتها.. وبعد ما يقارب ثلاثة أرباع القرن، انتهى كل ذلك، وتبخر خلال سنوات قليلة[2].

وبينما راحت الأديان السماوية تصف الله تعالى بأنه «أزلي

---

(١) الله والوجود الإنساني، د. عماد الدين الجبوري، طبعة ١٩٨٦م، ص ٣٤.

(٢) موقف الدين من العلم، د. علي باشكيل، ترجمة أورخان، طبعة ١٤٠٥هـ، ص٥١.

ليست له بداية، لم يولد من أحد، ولم يستحل أو يتطور من موجود آخر، إنه أبدي ليست له نهاية، لا يموت ولا يفنى مطلقاً، ولا ينقص شيء من إرادته وقدرته، وهو منزه عن المادة، أي إنه فوق مستوى حواسنا القاصرة الفانية، لا تدركه الأبصار، ولا تصل إليه الأيدي، ولا تستطيع حاسة أن تدركه أو تبلغه، ثم إنه منزه عن الزمان والمكان، وهو قادر مطلق، وكل شيء يدخل تحت هذه القدرة والإرادة المطلقة، دون حاجز أو مانع... وهو يتصف بكل صفات الخير والكمال والجمال، والعلم والعدالة والرحمة.. إلخ.

وهذه الذات الإلهية خلقت السموات والأرض والملائكة أولاً، ثم خلقت النباتات والحيوانات على سطح الأرض...»[1].

هذه الصورة لله تعالى ترسمها الأديان السماوية، فكيف يرسم كهان العلمية، صورة الكون بدون إله؟!

«والحقيقة أن المادية، التي تسمي نفسها بـ (المادية العلمية)، لا تعتقد بوجود الله القادر المطلق، وإنما تقيم مكان هذه العقيدة قوانين الصدفة والسببية»[2].

---

(١) موقف الدين من العلم، ص٥٣.

(٢) المرجع نفسه.

إن الأديان السماوية –خاصة الإسلام– تعتبر القوانين الطبيعية قوانين إلهية، وضعها الله وفق خطة معينة، ولغاية محددة، بينما يقول الماديون: إن هذه القوانين لم يضعها أحد، وإنما جاءت نتيجة صدفة، وتأسست من نفسها، دون تدخل من أحد، وكل ما في الكون من موجودات، أساسها مادة أزلية، لا تفنى ولا يمكن أن تُستحدث، وليس لوجودها بداية ولا نهاية، وغير قابلة للفناء، ولكنها في استحالة دائمة، يتغير شكلها باستمرار.

وهذا يسري على الإنسان، وكذلك الحياة، فليس كلها من صنع خالق. وما هذه الحياة إلا وليدة «الصدفة»، قد تكونت بنفسها، دون تدخل من أحد، ثم ارتقت من طور إلى طور.

وهم ينكرون كافة العقائد السماوية، ويصفونها بأنها من العصور الغابرة، وكل من يدعو لدين، فهو يريد رد المجتمع إلى العصور القديمة.

**العلم والدين:**

يقول بعض هؤلاء: إن الأديان كانت مفيدة في عهود الجهل، وبما أنها لا تستند إلى أي أساس علمي، فإن الأمم بعد أن تستضيء بضياء العلم، سوف تزول منها الأديان في وقت قريب...

والذي يصعب فهمه وقبوله، أن من يقول بأن هذا الكون بما يحويه، هو من صنع عالم مريد، خلقه وفق تصور سابق، يقال له: هذا كلام غير علمي وغير مقبول.

والذي يقول: بأن العالم والحياة وجد بالصدفة، تكون مقولته علمية وفلسفته كذلك!

إن العلم الذي يلوكونه ليل نهار، عاجز عن إثبات أو نفي كثير من قضايا الدين، بسبب اختلاف المنهج والهدف، يقول باشكيل[1]: «إن العالم غير المحسوس والعالم اللامادي يبقى خارج إطار العلم، فهو لا يستطيع أن يصدر أي حكم سواء أكان نفياً أو إيجاباً، إنكاراً أو تصديقاً، في المسائل التي لا تدخل المختبر، ولا تجري عليها الأقيسة.. إن العلم يستطيع أن يقول شيئاً واحداً فقط: لا أدري.

إن المواضيع الدينية، كعقيدة الله واليوم الآخر، والمسائل التي تتعلق بهذه العقائد، هي حقائق تعود إلى العالم اللامادي، وإن إصدار أي حكم باسم العلم، وإنكار هذه الحقائق، إنما هو افتراء على العلم، واستغلال أثيم له، لأن هذه العقائد خارجة عن تناول

(١) موقف الدين من العلم، ص٩٠.

البحث العلمي.. وتجارب الحياة وحدها، هي التي تستطيع أن تبين لنا قيمة هذه العقائد.. فالإنسان كلما سار وتقدم في درب هذه الحياة، اتضح له أن فراغ القلب من الإيمان لا يعوضه ولا يملؤه المنصب ولا الجاه ولا الثروة ولا أي عرض من أعراض هذه الدنيا.

إن المواضيع الخارجة عن نطاق العلم، لا تقتصر على العقائد الدينية وحدها، فكنه المادة والقوة، ومنشأ الشعور والإحساس وحركته، وماهية العقل والإرادة، ومدى حرية هذه الإرادة، كلها من الأمور غير المادية. وكذلك الخير والشر، العدالة والظلم، الفضيلة والرذيلة، وأشباهها من قواعد الأخلاق، كلها تبقى خارج حدود ونطاق العلم، بل إننا نستطيع القول: بأن المواضيع الخارجة عن ساحة العلم، بالنسبة إلى المواضيع الداخلة في ساحته، بمثابة البحر الواسع إلى قطرة ماء، وإن نسبة ما يعلمه الإنسان إلى ما يجهله، كذرة في فلاة مترامية».

إذن لكل من الدين والعلم مجالات تخصه، ولكل منهجه، فالعلم يصف، والدين يبين الغاية، العلم يجيب عن كيف؟ والدين يجيب عن لماذا؟

**العلم والمرجعية:**

يطرح د. برهان غليون سؤالاً هامًا عن مصدر معلوماتنا ومرجعيتها، فيقول[1]: «ما هو مصدر معلوماتنا الصحيحة، أي ما معيار التمييز بين الحق والباطل؟ ومن ثم ما الذي يكفل صحة معارفنا وأحكامنا العقلية وصلاحيتها؟ ونستطيع أن نطرح الموضوع بطريقة أبسط فنقول: كيف يكون الواقع مطابقًا لذاته؟ أي متسقًا ومن ثم معقولاً ومقبولاً؟

ليس هناك مجتمع يمكن أن ينشأ أو يعيش دون أن يحدد لنفسه أسس المعرفة «اليقينية»، وشروط نمو هذه المعرفة، التي هي أساس نشوء العلم وتطوره، وسبب ومبرر وجوده. ومن هذه الأسئلة يصدر السؤال الأعم، الذي يتعلق بنا مباشرة، وهو: لماذا لم يتطور العلم الحديث في المجتمعات العربية المعاصرة؟ وكيف يمكن تجاوز العقبات التي تقف أمام هذا التطور؟

تفترض أيديولوجية «الحداثة» مسبقًا أن الواقع المطابق لذاته هو الواقع الحديث المساير للحداثة، وأن كل مظاهر الحياة التقليدية وأنماطها، ليست إلا واقعًا «مفوّتًا» لا انسجام فيه، أي ليس له أي قوام حقيقي ولا مبرر.

---

(١) اغتيال العقل، د. برهان غليون، الطبعة السادسة ١٩٩٢م، ص٢٢٠.

إن وجوده هو مظهر من مظاهر اللاعقلانية والانحطاط، أي هو شذوذ.. «فالحداثة» هي معيار العقلانية والصحة، ولا يمكن للمعرفة أن تكون صحيحة ويقينية إلا عندما يكون نموذجها هو الواقع المطابق لذاته، والمتسق في ذاته، أي الواقع الحديث المعاصر. والعلم بوصفه أحد منتجات هذه المعاصرة الكبرى، يشكل إذن بالضرورة، معيار صحة أفكارنا عن الواقع الذي نعيش فيه، فبقدر ما تكون هذه الأفكار مطابقة للعلم، تكون يقينية... إن مطابقة أفكارنا للعلم هي إذن قاعدة الموضوعية، والعلم كما هو مجسد في نظم معرفية جاهزة، هو ضامن صحة هذه الأفكار ويقينيتها.. إن هذه المحاكمة تقول عمليًا: إن أصل المعرفة اليقينية -أي العلم- هو العلم نفسه[١]...

وإنما تضفي على المعرفة العلمية صفة الحقيقة المطلقة، والمنزلة التي تشكل في ذاتها المبتدأ والمنتهى، وهي لذلك تعجز عن أن تفسر نشأة العلم، وأقل من ذلك، تطوير التجربة العلمية، وتضع نفسها في وضع المترجم الدائم، والناقل للعلوم، أي تخرج من المسعى العلمي، في الوقت الذي تقدس فيه العلم كثمرة وكنتاج

---

(١) يلاحظ أن القضية صارت هي الدليل، وهذه مصادرة مرفوضة.

جاهز للعقل. إنها تجعل من العلم معرفة «لاهوتية مقدسة» مفصولة عن الواقع الذي استحدث منه، وعن المجتمع الذي ظهرت فيه، وعن الذات التي أنشأته، وعن المطلب الذي وضع له... إنها اكتفت بالاستهلاك العلمي، بدل أن تمارس الإنتاج العلمي الحقيقي... لقد أصبح الموقف السائد: العلم موجود، إنه قائم هناك، جاهز ومتطور، وليس علينا إلا أن نأتي به، أن ندخله عندنا، أن نفسح له المجال ونرعاه، وبذلك حرمنا أنفسنا من كل قدرة على مناقشته أو الإضافة إليه».

إن البعض عندنا يهرب من الميتافيزيقية الدينية، ليسقط في ميتافيزيقية علمية، يهرب من حقائق الدين، ليسقط في حقائق العلم، هكذا تبدو العملية[1].

إن أهل الحداثة يرون -باسم العلم ومن أجل اكتسابه- أن علينا التخلي عن كل الثوابت، «وعندئذ فإن المنطق لا بد أن يؤدي إلى نتيجة واحدة، هي أن شرط اكتسابنا للعلوم والعقل، هو التخلي عن تاريخنا وثقافتنا التي هي أصل الفساد والخطأ، وننهل ما أمكننا من

---

(١) كنت أعرف معلماً، يكثر الحديث عن كتاب «رأس المال» لماركس، وأشك أنه قرأه، وإن قرأه ما فهمه، قال لي مرة: إنه مثل القرآن! قلت: هربت من الإسلام والقرآن إلى الماركسية ورأس المال، فما الجديد إذن؟!

العلم الغربي، دون إدراك أن هذا النهل هو بطبيعته مخالف للعلم، وللمسعى العلمي الصحيح، ولو كان خطوة أولى ضرورية... إن مسعاهم العلمي ليس كما قلنا إلا صبغ مسبقاتهم الأيديولوجية بالصبغة الحديثة»[1].

يعود في نهاية البحث للقول: بأن العقلية العلمية لا تطرد الدين من المجتمع، ولا تجعل هذا شرطًا للتقدم العلمي، ويضرب مثلاً بأمريكا وإسرائيل.

والناظر في خارطة العالم اليوم يجد أن التوجه للتصالح وليس للاحتراب، ولكن البعض يعتقد أنه يكون قريبًا من الغرب كلما أعلن عن عداء للإسلام، دون أن يدرك أن ذلك يقطع صلته بشعبه وأمته، حتى لينظر إليه وكأنه غريب كل الغرابة. البعض بدافع التخفف من الالتزامات الإسلامية يعلن إنكار الدين أو معاداة الإسلام تحديداً، لكن مجرد التمرد والخروج، لا يعني أن صاحبه صار علميًا أو تقدميًا، لكنه صار غريبًا في وطنه.

**الإنسان والعلوم:**

يمكن القول: بأن ثمة علومًا مصدرها النص، وأخرى الكون،

---

(١) اغتيال العقل، ص٢٢٤.

فكل ما يتعلق بالله تعالى وصفاته وكتبه ورسله، واليوم الآخر وما يحدث فيه، وكل ما يتعلق بالعالم غير المرئي مثل الملائكة، والعبادة وكيف تؤدى، كل ذلك تفضل الله به على العباد، فجلاه تجلية تامة.. وأما علوم الحياة، مثل الزراعة والكيمياء والفيزياء والهندسة والطب والفلك، فقد ترك أمرها للإنسان ليعمل فيها فكره، وعن طريق التجربة والخطأ كشف الإنسان الكثير من العلوم.

وإذن فهناك دائرتان، والخلط بينهما يوقع الإنسان في مشاكل هو في غنى عنها، فالإنسان بعقله المجرد لا يمكن أن يعرف ذات الله تعالى ولا صفاته، ولا ما أنزل من كتب وبعث من رسل، ولا ماذا سيحدث بعد الموت، كما لا يعرف كيف يعبد الله تعالى عبادة صحيحة، يرضى عنها الله تعالى، ويأجره على فعلها.. لكنه كشف أو استطاع أن يكشف الكثير من قوانين وسنن الكون.

وقد سقطت الكنيسة الكاثوليكية في خطأ قاتل، حين خلطت بين الدائرتين، فنسبت بعض علوم الحياة لله تعالى، واعتبرت كل من يخالفها «مهرطقاً»، وعرضته على محاكم التفتيش السيئة السمعة والصيت، حتى كره الناس الدين وألحدوا.

فقضية مثل «كروية الأرض» من علم الفلك، ولا صلة لها بالدين وعلومه، لكن الكنيسة بقيت قروناً ترفض كروية الأرض

وحركتها.. وليس في نصوص الدين شيء يقول بذلك، وإن وجد فمشكوك بصحته، كما رفضت وجود الجراثيم. وقد ذكرت الكاتبة الألمانية «زغريد هونكه» أمثلة من عقائد الكنيسة، مثل[1]: «ملعون من يقتنع أو يقبل تفسيراً علمياً لحوادث الطبيعة، خارجاً عن طاعة الرب، ومن يشرح أسباباً طبيعية لبزوغ كوكب أو فيضان نهر، بل لمن يعلل علمياً شفاء قدم مكسور أو إجهاض امرأة، فتلك كلها عقوبات من الله، أو من الشيطان، أو معجزات أكبر من أن ندرك كنهها».

والأب (ملشوار) يعلن[2]: «إن القول بحركة الأرض أسف من كل ضروب الهرطقة، وأكبرها إثماً، وأشدها قدحاً في الدين... وأقذعها قذفاً، وإن ثبات الأرض معتقد مقدس!

وإن البرهنة على فناء النفوس الإنسانية، وعدم خلودها، وإنكار وجود الله، وامتناع التجسيد، أشياء يمكن أن يتسامح فيها، قبل أن يتسامح في البرهنة على أن الأرض تتحرك».

وقد صنع رئيس بلدية في ألمانيا (مصباحاً) يعمل بغار

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب، زغريد هونكة، ص٣٧٠.

(٢) من رسالة للدكتوراه -تحت الطبع- لعبد الحميد مبارك، عنوانها: التلازم والانفصال بين الدين والدولة.

الاستصباح، فقضت الكنيسة بكفره، محتجة بأن الله تعالى خلق الليل مظلماً، والنهار منيراً، وهذا المصباح ينير الليل، ويغير في مشيئة الخالق، حيث يحول الليل إلى نهار[1].

إن التعسف والخلط واضح جداً، ونسبة علوم بشرية لله تعالى، دون وجه حق، كل هذا أشعل صراعًا بين الكنيسة ورجال العلم، انتهى بهزيمة الكنيسة، فقبلت فصل الدين عن الدولة. ومن المفيد القول: بأن ما يعتبره البعض تصادمًا بين النص والعلم، ليس كذلك، وإنما السبب في تعميم نظرية وتحويلها إلى حقيقة علمية مطلقة، أو سوء فهم للنص ليس أكثر. فإن تصادما، أخذنا بالقطعي منهما وأوّلنا الآخر، كما هو رأي شيخ الإسلام ابن تيمية.

وأخيراً لقد كان أفلاطون عقلية كبيرة، وصاحب علم متقدم في عصره، ومثله اليوم ملايين، وقد استطاع بعقله وعلمه التوصل إلى وجود الله تعالى، وساق الأدلة على ذلك، لكنه لم يصبح نبيًا، ولا متدينًا.. لم ينقص أفلاطون وأمثاله العقل والعلم، ولكن ينقصه الوحي، لقد غاب عنه النص الصحيح.. وفي مقابل ذلك جاء عربي بكتاب ودين ومعارف، عجز ويعجز فطاحل العلماء عن مثلها.

---

(١) بين العلم والدين، ص٢٧.

## ثانيًا: الكون

وهو ما سوى الله تعالى، خلقه الخالق كما أراد وفق قدر مسبق، ولذا فهو مخلوق «فكري» بالدرجة الأولى، مادي بالدرجة الثانية. وهذا ما توصل إليه علماء الفلك أخيرًا، أمثال «السير أرثر» البريطاني، الذي يكرر أن مادة الكون عقلية.

ومثله «جميس جنز» الذي يرى بأن الكون كون فكري، ولم يعد يقبل التفسير المادي، في ضوء علم الطبيعة الجديد، وحتى التفسير المادي قد صار أخيراً «فكرة ذهنية»، وينتهي للقول: «وإذا كان الكون كونًا فكريًا، فلا بد أن يكون خلقه كان عملاً فكريًا». ويشاركهم «ج.و.ن. سوليفان» هذا الاعتقاد[1].

إذن فالإنسان والكون مخلوقان لله تعالى، ولم يتطورا عن شيء، بل خلقا ابتداءً، وفق تصور سابق وقدر قاهر.. أما ضبط حركة الكون، فجاء وفق سنن ونواميس إلهية، يحلو للبعض أن يطلق عليها «قوانين الطبيعة».

وقد سخر الله الكون للإنسان، كما سلطه ومكنه من كشف سننه وقوانينه، وذلك عن طريق الملاحظة والتجربة، وقد كشف الإنسان الكثير من هذه القوانين، وما بقي قد يكون أكثر من ذلك.

---

(١) في الحضارة وأمراضها، للكاتب، ص٦، ١٥.

وقد سقطت الكنيسة الكاثوليكية في وهم قاتل، حين اعتبرت كل كشف وكأنه نفي لإرادة الله، وليس هو كذلك.. فمعرفة قوانين الفلك، وحركة الذرة، وقوانين الفيزياء والكيمياء، ومثل ذلك علم الحيوان والنبات، كل هذه العلوم والمعارف مما يسر الله للبشر الكشف عنها، وكما يقول علماء الكلام: فإن دقة الصنعة تدل على عظمة صانعها، فالكون كتاب مفتوح، المطلوب أن يكون وسيلة للتعرف على خالقه والإيمان به.

وكما أن صانع الآلة يعلم جيداً مهمة كل قطعة فيها، وهو أفضل من يحسن صيانتها، فكذلك خالق الكون هو الأعلم بما يصلحه.. ولأن دور الإنسان دور المنتفع فعليه أن لا يتجاوز ذلك، فيتصرف وكأنه المالك المطلق اليد، يعبث في الكون ويخرب فيه، فيفسد البيئة، يقطع أشجار الغابات، أو ينشر التلوث، أو يملأ الأرض بالمبيدات الضارة والصناعات القاتلة.

إن فهم الكون اختلط أحيانًا بالأساطير، أو بالربط بين حركة الإنسان والنجوم، فجاء الإسلام يرفض ذلك كله، فمن يتردد على كاهن أو عراف، ثم يؤمن بما يقوله، فقد يوصله ذلك إلى الكفر. وحين مات إبراهيم، ابن رسول الله ﷺ، وصادف كسوف الشمس، فربط الناس بين الحدثين، سارع صاحب الرسالة لنفي

هـذا الربط، معلنًا أن الشمس ومثلها القمر آيتان من آيات الله، لا تخسفان ولا تكسفان لموت أحد.

كما حرم الإسلام الشعوذة بأنواعها، والدجل بأنواعه، وحرم تعاطي السحر، وجعل عقوبة متعاطيه القتل، بل حرم تعاطي المسكرات لأنها تفسد العقل.

وأختم البحث برأي لعالم الاجتماع الأمريكي «إريك فروم» يتحدث فيه عن أن علاقة الإنسان بالطبيعة، راحت تتسم بالعداء والاحتقار معًا[1]: «إن علاقة الإنسان بالطبيعة، اتسمت بالعداء الألد... ظروف وجودنا تجعلنا جزءًا منها، وموهبة العقل تجعلنا نتفوق ونعلو عليها، ومن ثم فقد حاولنا أن نحل معضلة وجودنا بنبذ رؤية الخلاص، المتمثلة في الانسجام بين الجنس البشري والطبيعة، واتجهنا نحو إخضاعها وقهرها، وتحويلها لخدمة أغراضنا، حتى أصبح هذا القهر مرادفًا لتدمير الطبيعة.

إن روح العداء والإخضاع أعمتنا عن حقيقة أن للموارد الطبيعية حدودًا يمكن أن تستنفد، وأنه سيأتي الوقت الذي سترد فيه الطبيعة على جشع الإنسان.

(١) الإنسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة سعد زهران، عالم المعرفة، ١٩٨٩م، ص٢٦.

إن المجتمع الصناعي يحتقر الطبيعة، ويحتقر كل ما ليس من صنع الآلة، ويحتقر الشعوب التي لا تصنع الآلات، فالناس اليوم ينجذبون لكل ما هو ميكانيكي آلي، ولما لا حياة فيه، وينجذبون يومًا بعد يوم للتدمير».

إن التلويث للبيئة يقوم به الإنسان الأكثر ترفًا، فالفرد الأمريكي يعادل ألف هندي أو أفريقي، في هذا الميدان.

في بلد عربي أراد إقامة مصنع نسيج كبير، فوضعه على حافة نهر صغير، وبعد مدة، ونتيجة لإلقاء المخلفات الصناعية والأصباغ والزيوت، والمواد الكيمياوية، تلوث ماء النهر فلم يعد صالحًا لشرب الإنسان أو الحيوان، حتى الأسماك لم يعد بمقدورها العيش، وهكذا يفسد الإنسان الطبيعة! وقد سجل شاعر ذكي مثل هذا الفساد، فقال:

كلما أنبت الزمان قناة  ركب المرء في القناة سنانًا

ينبت النبات، فيحول الإنسان بعضه إلى أداة قتل، وخلق الله الحديد، وجعل فيه بأسًا، فصنع الإنسان منه الدبابة والمدفع والقنبلة، وكان بإمكانه أن يصنع محراثًا أو آلة للحصاد، أو وسيلة لنقل الماء.

ولعل الأقبح من كل ذلك ما ينشره الإنسان من فساد في الكون وإفساد، ومن عبث، ربما كان الاستنساخ من أواخر نماذجه.

هناك اليوم ملايين من البشر بحاجة إلى الطعام والدواء واللباس، وهناك ملايين الحيوانات تموت جوعًا وعطشًا، على حين ينفق المترفون المليارات على تدخين السجاير، أو حرب النجوم، أو إرسال مركبات فضائية تكلفة الواحدة تكفي لإطعام مليون جائع، وألف مستوصف.

إن ثمن دبابة قاتلة يبني أكثر من مدرسة، ويوفر الطعام والدواء لألوف الجياع، فلماذا يجنح «المترفون» للشر والعبث؟!

لماذا تتصاعد الغازات بهذه الكثرة حتى تحدث ثقبًا في طبقة الأوزون، عمرها ملايين السنين؟

الإنسان المترف صار العدو الأول للطبيعة، يعبث فيها عبثًا مخيفًا «فالغابات -على سبيل المثال- تعيش مرحلة الفناء التدريجي، ذلك أن ثلث الأشجار التي كانت موجودة عام ١٨٨٢م، ومساحتها حوالي ملياران من الهكتارات، قد أزيلت حتى عام ١٩٥٢م. والإتلاف مستمر وآخذ بالاتساع، كل دقيقة يتلف الإنسان عشرين هكتاراً من الغابات في العالم.

إن كمية الورق اللازم لعدد «الأحد» من صحيفة نيويورك تايمس، والذي يحتوي على ثمانين بالمائة من الإعلانات الدعائية، يتطلب قطع (١٥) هكتاراً من الغابات الكندية، كما يتطلب العدد اليومي (٦) هكتارات، فاجتثاث الأحراج الجاري بلا روية ولا تبصر من أطراف الهملايا، يحدث اليوم فيضانات مدمرة في بنغلاديش، كما تولد الزراعة الموروثة عن الاستعمار ألوان الجفاف في الساحل»[١].

وأخيراً: لماذا يصر هذا المترف على القول: بأنه يقهر الطبيعة؟! ألا يكفيه قهر البشر، حتى توجه إلى الطبيعة ليقهرها؟!

وأختم بقول الحق: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لقمان: ٢٠).

وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحج: ٦٥).

---

(١) نحن والصديق اللدود، للكاتب، ص٢٨.

# ثالثاً: الإنسان

الإنسان مخلوق فريد، صاحب عقل جوال، وإرادة قوية، وقابلية عظيمة للتعلم والارتفاع، والجهل والسقوط، يرتفع إلى مستوى الملائكة، ويهبط إلى مستوى الشيطان، دائم التذبذب، مشبوب العاطفة، يملك روحًا تشده إلى خالقه، وجسماً وشهوات تهبط به إلى الأرض.. صانع الحضارة، القادر على هدمها وتدميرها.. يولد ولا علم له، ثم لا يموت حتى يكدس جبالاً من العلم والمعرفة.. انتدبه خالقه لعمارة الأرض، وعبادة الخالق.

كرّمه وقدمه على سائر المخلوقات.. حمّله الأمانة، وأمره أن يكون صالحًا مصلحًا، وأن لا يفسد في الأرض، وأن لا ينازع الخالق ربوبيته، وأن لا ينصب نفسه معبوداً من دون الله سبحانه.

هذا الإنسان المخلوق الفريد له مكونات يشاركه بها غيره -من المخلوقات- ومكونات ينفرد بها.. فما هي مكوناته؟

**١- مكونات الإنسان:**

يتكون الإنسان من جسد، وعقل، وروح، وعواطف.. الجسم يتكون من عناصر معروفة، فإذا مات تحلل جسمه.. والجسم السليم ما غذي بالحلال، وأعطي قسطه من النمو السليم الصحيح،

والراحة المناسبة.. وقد حرم الإسلام كل ما يؤذي الجسم، كما منع تكلف المشاق، وكل ما يرهق البدن، خادم العقل والروح.

أما الروح فلا نعلم عنها شيئاً، سوى أن الميت يفتقدها، ولا يقول متفلسف: إذا كنا لا نعلم حقيقتها، فكيف نسلم بها؟

في الكون ألوف القضايا نسلم بها، دون أن نعلم حقيقتها -وقد تقدم هذا في مبحث العلم- ومهمة الروح الاتصال بالخالق.

إن مخ المجنون يماثل مخ العاقل، فلماذا يختلفان في العمل مثلاً؟ أما العقل فهو القوة المفكرة والتي يفتقدها المجنون.. وأشبه العقل بالكهرباء في البطارية، فساعة تكون مملوءة، وساعة تكون فارغة من تلك القوة، بينما تكون مكونات البطارية موجودة، من أحماض وكربون ورصاص وغيرها، لكن الشحنة الكهربائية لا توجد.

أما الغرائز فيشارك الإنسان فيها الحيوان، فغرائزهما متماثلة، لكن الإنسان يتميز بعواطفه، يحزن ويسر، يتألم ويستريح، يحب ويكره، دون الحيوان.

والإنسان السوي، هو الذي نمت كافة مكوناته نمواً متوازناً.. وفي عالم اليوم، نجد من يهتم بالجسم أولاً، وأخيراً، ومن يريد أن يجور

عليه لتنشط روحه، ويطهر قلبه، ومن يعنى ويهتم بعقله وتحسين قدراته العقلية، ولا يهمه ما وراء ذلك.

وإذا كان الجسم ينمو بالرياضة والغذاء الحلال، فإن الروح تنشط بفعل الخيرات، وعبادة الله، كما أنها تدل على الخير والشر.

والعواطف تسمو وتهبط، حسب سلوك الإنسان وتوجهاته، فإذا توجه لخدمة الآخرين ومساعدتهم، سيحبهم ويحبونه، وإن عاش أنانيًا نرجسيًا، يعشق نفسه، ويرى سعادتها على حساب الآخرين، فستكون عواطفه سائرة في هذا الاتجاه، تعشق الربح الشخصي، والمنفعة الخاصة، وهو على استعداد لمحاربة الكل، ليظفر بما يريد.

وإذا كان الإنسان السوي من نمت كافة مكوناته نموًا متوازنًا، فالحضارة كذلك لها مكوناتها الروحية والعقلية والعاطفية والمادية، ولا بد من نمو متوازن وإلا جنحت سفينة الحضارة وغرقت.

ختامًا يمكن أن أقول: الجسم وعاء، والروح حارس، والعقل دليل.. الروح تضبط علاقتنا بالله تعالى، والعقل يخبرنا ويدلنا على أن هذا نافع وذاك ضار، لكن الإنسان قد يعمد للضار فيستعمله وإلى النافع فيهمله، وهنا يكون من مهمات الروح منعه من ذلك، فهي الحارس الأمين، لكن الحارس قد يغفل، والروح قد تضعف، فيفقد الإنسان «الرقابة» كلاً أو بعضًا.

## ٢- استخلاف الإنسان:

قال عز وجل: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٠-٣٣).

يستوقفني في الآيات الكريمة جملة أمور، منها:

أ- نسبت الملائكة لآدم عليه السلام تهمة عامة هي الإفساد، وفسرتها بسفك الدماء.

ب- إن آدم عليه السلام لم يسبق له سفك دم أحد.

جـ- إن الله تعالى لم ينف التهمة عن آدم وذريته، بل ألمح إلى قدرات أخرى معينة، هي العلم والاستذكار.

د- طرح الله تعالى «الأسماء» دون تحديد، فهل كانت مسميات الأشياء أم اللغات؟

هـ- من أين جاءت الملائكة بتهمة «الفساد»؟ هل ذلك لكونها استقرأت حال آدم كمخلوق مختار، فقدرت أنه من كان هذا حاله فإنه يمكن أن يسفك الدماء؟

و- لقد دلل الله تعالى على ما يتمتع به آدم من العلم والاستذكار، بطرح أسماء فاستطاع آدم استذكار تلك الأسماء.

ز- نمط العرض يوحي بأن الاستخلاف يرتبط بما وهبه الله لآدم من القدرات على التعلم والحفظ.

ح- إذن فالاستخلاف يرتبط بهذه القدرات، فمن تعلم ووظف قدراته فقد استحق الاستخلاف، ومن لا يتعلم يخسر ذلك.

بعد هذه الملاحظات أنتقل إلى فارس هذا الميدان «سيد قطب»[1]، يرحمه الله، فهو يرى أن الله تعالى يريد أن يسلم للمخلوق الجديد آدم عليه السلام، زمام هذه الأرض، وإطلاق يده فيها، يبدع فيها عن طريق التكوين والتحليل والتركيب والتحوير والتبديل، وكشف طاقات وكنوز هذه الأرض، وتسخير كل ذلك في المهمة الملقاة على آدم وذريته.

إن هذا المخلوق، قد وُهب طاقات واستعدادات توازي وتعادل

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/٦٧.

ما في هذه الأرض من طاقات وكنوز وخامات.. إن منزلة الإنسان في الوجود منزلة عظيمة.. والسؤال: من أين علم الملائكة بأن آدم سيفسد في الأرض ويسفك الدماء، ولم يفعل شيئًا بعد؟

ويجيب سيد قطب: ربما كان لديهم من شواهد الحال، أو من تجارب سابقة في الأرض، أو من الإلهام، ما كشفوا عن شيء من فطرة آدم وذريته، ثم هم بفطرتهم البريئة، التي لا تعرف إلا الخير المطلق، والسلام الشامل، يرون أن التسبيح والتقديس لله تعالى هو الغاية الكلية للوجود، وعلة الخلق، وهذا متحقق بوجودهم، لا بوجود آدم وذريته.

لقد خفيت عليهم الحكمة العليا في عمارة الأرض، وتنمية الحياة وتنويعها، وتطويرها وترقيتها، وكل ذلك يكون على يد مَن يستخلفه الله تعالى في أرضه، فهو المرشح لذلك، وإن كان يفسد أحيانًا، ويسفك الدماء أحيانًا، فإن خلف هذا الفساد والشر خير كثير أكمل وأشمل، حيث النمو الدائم والرقي المستمر، حيث الحركة التي تهدم لتبني، والتطلع الذي لا يقف، ومحاولة التغيير.. وقد جاء الرد ليس بنفي الفساد، بل بالقول: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

وبعد عرض أسماء الأشياء، وأعاد آدم عليه السلام المعلومة فنجح بالاختبار، ويعلق سيد قطب على ذلك قائلاً[1]: «ها نحن أولاء نشهد طرفًا من ذلك السر الإلهي العظيم، الذي أودعه الله هذا الكائن البشري، وهو يسلمه مقاليد الخلافة، سر القدرة على الرمز بالأسماء للحسيات، سر القدرة على تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها، وهي ألفاظ منطوقة، رموزًا لتلك الأشخاص والأشياء المحسوسة، هي قدرة ذات قيمة كبرى في حياة الإنسان على الأرض، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ (البقرة: ٣٤).. إنه التكريم في أعلى صوره، لهذا المخلوق الذي يفسد في الأرض، ويسفك الدماء، ولكنه وهبه من الأسرار ما يرفعه على الملائكة.. لقد وهب سر المعرفة، وهب سر الإرادة المستقلة التي تختار الطريق.. إن ازدواج طبيعته وقدرته على تحكيم إرادته، في شق طريقه، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله، بمحاولته الخاصة، إن هذا كله بعض أسرار تكريمه...».

إن الإنسان –وإن كان يفسد ويسفك الدماء– إلا أنه يمتاز بقدرات فائقة على «التعلم والتعليم».. وهذه القدرات على

(١) في ظلال القرآن، ٦٨/١.

اكتساب المعارف وتنميتها واستثمارها، هي من مرشحات الخلافة في الأرض، لأنه خير من يعمرها ويقيم الحضارة فيها، أما الملائكة فتجيد التسبيح لله تعالى، تحسن وتجيد العبادة، تطيع ولا تعصي، لكن متطلبات التحضر والعمران هي العلم المتطور المتجدد دائماً، وهذا ما يحسنه الإنسان، ولا تحسنه الملائكة، ومن هنا وقع الاختيار على الإنسان دون الملائكة.

وكل من لا يكسب علماً، على مستوى الفرد والأمة، فقد أخل بشروط الاستخلاف الأساسية، والله تعالى لا يحابي أمة، ولا يعطيها إلا ما تستحق، فليس للإنسان إلا سعيه وكده.

وأخلص إلى أن الإنسان صاحب مواهب وقدرات، فإذا وضع في شروط مناسبة، ومكان مناسب، وعومل معاملة كريمة، بعيداً عن التأليه أو التحقير، فإنه يعمر ويتقدم، يقيم حضارة ويرعاها.

أما إذا أهين واحتقر، وحوصر وخوّف، فَقَد معنى الحياة، وماتت قدراته، وانتهت إبداعاته، وربما تحول إلى أداة هدم وتخريب، يشعل الحروب ويتاجر بالأسلحة الفتاكة والمخدرات، ووسيلة دمار.

وعتاة المستعمرين -قديمًا وحديثًا- ورجال المافيا من كل لون، وفراعنة السلطة، ودهاقين الرشوة والفساد، كل أولئك وأمثالهم أدلة

حية على ما يمكن أن يصل إليه الإنسان الشرير الأناني، الفاسد المفسد، ولو كان على رأس القيادة في العالم.

إن من يبحث عن دليل فدونه قول الله سبحانه: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (القلم: ٣٤-٣٥).

**٣- تكريم الإنسان:**

الإنسان مخلوق كرّمه خالقه، صغيراً كان أم كبيراً، عالمًا أم جاهلاً، إلا أنه لا يصير مكلفًا حتى يجمع صفتين: العقل والبلوغ، لكنه مكرم قبل التكليف وبعده، حيًا أم ميتًا.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠).

فالتكريم مرتبط بصفته من بني آدم، وقد اتخذ صوراً كثيرة، منها:

أ- **اتخاذ الرسل**، وهم صفوة الخلق من البشر، وهي مهمة سامية لا تدانيها منزلة ولا وظيفة، وقد عرفت الإنسانية منهم أعداداً كبيرة، ذكر الله في كتابه منهم مجموعة، لكنه ذكر أيضًا أنه بفضله وعدله لم يترك أمة دون أن يبعث فيها ولها نبي أو رسول.

وإلى جانب الأنبياء وقريباً منهم الشهداء، فهم الأقرب درجة، والأشبه سلوكًا.

ب- **تسخير الكون للإنسان**: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الجاثية: ١٢)، وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (لقمان: ٢٠)، وبفضل هذا التسخير يعيش الإنسان سيداً في هذا الكون الواسع.

جـ- **سجود الملائكة**: أمر الله تعالى الملائكة أن تسجد لآدم عليه السلام، سجود تقدير واحترام، لا سجود عبادة طبعًا، يقول الحق: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ﴾ (الأعراف: ١١). وقد استجابت الملائكة فسجدت: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ (البقرة: ٣٤).

د- **استخلاف آدم في الأرض**، يقول الحق: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: ٣٠). هذه المهمة الكبيرة نيطت بالإنسان كي يعمر الأرض، وينشر العدل، ويسير فيها كما أمره من استخلفه، فلا يكون عنصر هدم أو تخريب.

هـ- **خلق الإنسان على صورة جميلة**، يقول الله تعالى:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (التين: ٤)، ويقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ ﴾ (الأعراف: ١١).

والإنسان بشكل عام جميل الصورة، حسن المنظر، ولا يخرم القاعدة وجود قلة ليس كذلك، إذ الحكم للأعم وليس للقلة. كما قد تشاركه -في هذ الصفة- مخلوقات أخرى، ولكن تبقى صورة الإنسان جميلة بشكل عام.

و- **منع الاعتداء على الإنسان** بالهمز أو اللمز أو الإهانة أو الضرب، حتى يسقط في اعتداء على غيره فيقتص منه، فهو بريء حتى تثبت إدانته، ولا يسمح بمعاقبته بأكثر من جرمه.

ز- **لقد جعل الله للإنسان عقلاً وإرادة**، فهو يفكر ويدبر، ثم يتخذ القرار، فإن كان صوابًا فله أجره، وإن كان خطأ فعليه وزره، فإذا كان الفعل غير إرادي فلا مسؤولية ولا عقاب، على حين تتحرك كائنات ومخلوقات أكبر من الإنسان، وفق سنن وقوانين، فلا تملك عشر حرية الإنسان.

إن الإنسان -عن طريق العقل- يستطيع أن يميز بين الحق والباطل، بين الحقيقة والوهم، وبفضل إرادته يمكنه أن يختار الخير

أو الشر، وعن طريق «النطق» تم الاتصال بين الألوهية والإنسان، وحيًا وبلاغًا من جهة، ودعاء وعبادة من جهة ثانية.

وهكذا يحصل للإنسان من التكريم ما يفوق غيره، فميزه خالقه بالعلم، حيث يولد ولا علم لديه، فلا يموت حتى يجمع جبالاً من العلم.. كما منحه قوة في الفهم، وحرية في التحرك، فليس هو حيوان تتحكم به غرائزه، ولا مخلوقًا مسيرًا في كل شيء، تضبط حركته سنن عامة، وكل ذلك ليؤدي رسالته على هذا الكوكب، فيعبد الله تعالى كما أمر، ويعمر الأرض، ويشيع فيها الخير والعدل والسلام.. ولا يتحقق كل هذا وغيره إلا بالإيمان بالله تعالى والعمل الصالح، فإن التزم بهما، وحافظ على مرجعية «الوحي»، فسيظل وفيًا لخالقه، جديرًا بصفة «الخليفة المكرم»، وإن ابتعد عن ذلك، وأدار ظهره لخالقه، وأهمل المنهج الذي أهدي له، ترك لحاله، وانتظر حتى يأتي على ربه يوم الحساب، فإما جنة أو نار.

إن الإنسان الرافض لمرجعية الوحي، المتمرد على خالقه، الضارب بأوامره ونواهيه عرض الحائط، سيترك في الدنيا لحاله، ولكن الحساب سيكون هناك، ومن ثم فقد يتقدم هذا «المتمرد»، وقد يتسلم قيادة البشرية، لكن ذلك ليس بفضل كفره وتمرده، بل لإجادته التعامل مع الحياة، ومعرفة قوانينها، والتصارع والتدافع

بقوة وجدارة، لذا سيتقدم غيرَه ولو كان مؤمنًا، لأن المؤمن تخلف عن معرفة قوانين التحضر والتقدم، أو عرفها نظريًا، لكنه لم يستعملها بصورة صحيحة.. فالكفر ليس هو سبب التقدم، والدليل أن هناك ملايين البشر لا يعرفون الله تعالى، ولا يعبدونه ولا يطيعونه، وهم في ذيل قافلة التقدم، بل يعيشون عالة على غيرهم، فالكفر ليس آلة للتقدم.. فكما قال «الغزالي» فإن الكافر المتقدم، عرف جيداً علوم الحياة، واستعملها الاستعمال الجيد، لكنه لا يعرف قوانين الآخرة، وليس له نصيب فيها.

والخير كل الخير، أن يعرف الإنسان قوانين الدنيا، وقواعد التحضر، ثم يعبد الله تعالى كما أمر، وللأسف فهذا النفر اليوم قلة قليلة، أما الكثرة الغامرة، فلا تعرف الله تعالى، ولا علوم الحياة «التحضر».. وهناك قلة تعرف جيداً علوم الحياة، لكنها لا تعرف الله تعالى حق المعرفة، ولا تعبده كما أمر.

والمطلوب، قديمًا وحديثًا ومستقبلاً، أن يعلم الإنسان علوم الحياة والتحضر، وأن يعبد الله كما أمر، وهذا ما يُفتقد اليوم.

## الحاجة إلى دليل:

قد يكون الإنسان من أكبر علماء الفلك، أو الفيزياء أو الطب أو النبات، لكنه إذا أراد السفر، فقد يحتاج إلى دليل، ليس عنده

إلا المعرفة الجيدة بالأرض والطرق.. والإنسان كذلك قد يكون من أكبر العلماء، لكنه يحتاج إلى دليل يدله إلى الله تعالى، وأكبر وأعظم الأدلاء هم الأنبياء، وأكبر وأعظم كتب الهداية ما جاء عن الله تعالى، وحفظه خالقه من العبث والتحريف والضياع.

**٤- حرية الإنسان واختياره:**

يعيش الإنسان في دائرتين، دائرة لا حرية له فيها، وأخرى يملك التحرك فيها بحرية.. والقضية قديمة، فالإنسان يتساءل: هل هو مجبر أو مخير؟ والموضوع على قدمه كثر فيه الخائضون والخابطون، وبدلاً من اتضاح القضية ظل يشوبها الغموض، نظرًا لكثرة الخائضين. فإذا نظر الإنسان إلى ما حوله، فسيجد دائرة هو فيها مجبر غير مخير، فالإنسان يولد لأبوين لا خيار له فيهما، ويولد في بلد لم يكن له فيه خيار كذلك، كذلك لا خيار له في جماله وقبحه، ولا في كونه عصبيًا أو هادئًا، مريضًا أو معافى، إلى كثير من أمثال ذلك.

وإلى جانب ذلك هناك دائرة أخرى، تخضع لتدبير الإنسان وتفكيره وقراره، وهي واسعة كبيرة.

الدائرة الأولى لا ثواب عليها ولا عقاب، لأن الإنسان لا دخل له في ذلك، والدائرة الثانية يثاب ويعاقب فيها، لأنه حر

يختار ما يريد، فإذا فعل الخير جوزي بالثواب، وإذا فعل الشر جوزي بالعقاب، متى كان عاقلاً مختاراً غير مكره.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف:٩٦)، ويقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال:٥٣)، ويقول تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (الصف:٥).

إن الإنسان يعمل وفق حريته وإرادته، وفي حدود خبراته وقدراته، ثم يرتب الله تعالى نتيجة منسجمة مع طبيعة عمل الإنسان.. ومثل ذلك الأمة، فمن يفعل خيراً يجز به، والأمة التي تعمل بجد وإخلاص تتقدم -ولو كانت كافرة- والأمة التي تهمل وتتكاسل تتأخر ولو كانت مؤمنة، فالله تعالى لا يحابي أحداً، ولا يداري أحداً، ومن يعتقد أنه من شعب الله المختار، فهو في الحقيقة من شعب الله (المختال المخدوع).

إن الإنسان يملك حرية التخطيط والتنفيذ، كما يملك التصرف بالنتائج، وكذلك الأمة.

لكن هناك سنناً عامة لا يملك الإنسان مغالبتها ولا القفز فوقها، وكذلك الأمم.. ومن هنا يجب معرفة تلك السنن، لأن من يجهلها قد يصطدم معها، وقد يحاول القفز فوقها، فلا يفلح.

وقد طرح (آلبان) وهو من مفسري التاريخ، موقف القرآن الكريم من الجبر والاختيار، فقال[1]: «يدور جدل كثير حول مذهب الاختيار، وهل هو مما يعلمه القرآن أم لا يعلمه... ينبغي أن لا يغيب عن أذهاننا أن القرآن كتاب دين، وليس كتاباً يجمع مباحث نظرية فلسفية خاصة، فهو يحتوي على الاعتراف بكل من سيطرة الله، وحرية الاختيار عند البشر، ولكنه لا يبحث بطريقة تأملية: كيف يمكن الجمع فكرياً بين هذين الأمرين؟

فهو يؤكد أن الله تعالى مسيطر على كل شيء، وقد نفخ في الروح سجيتها: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (الشمس: ٧-٨).. والقرآن من أوله إلى آخره يؤكد استخدام «الاختيار»، تأكيداً كبيراً، فليس الله بظلام للمذنبين ولكن أنفسهم يظلمون: ﴿ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (الجاثية: ٢٢).

---

(١) التاريخ وكيف يفسرونه، ص٩٣.

والقرآن يشير في مواضع كثيرة إلى القرى التي ازدهرت أو هلكت، بما قدمت يداها من طاعة أو عصيان، للسنن الخلقية التي يعبر عنها القرآن ».

ومعلوم أن وصف عمل ما بأنه خير أو شر، يتوقف على حرية الإنسان في العمل، فإن كان مجبراً فلا خير ولا شر، هذا مثل ذاك ولا فرق بينهما، بعيداً عن الحرية.. كذلك يفقد الحساب والعقاب معناه، إذا كان الإنسان مجبراً، ويفهم جيداً مع الاختيار.

فالمسؤولية تابعة للحرية، فإذا فقدت الحرية فلا مسؤولية، وإذا صار الإنسان آلة بيد غيره ثم قام بجناية فالمسؤولية على من أمره، وليس على المنفذ، كما يرى الفقهاء.. ومنذ أن استقر الإنسان على كوكب الأرض، راحت الرسل تترى، ومهمتهم جميعاً دعوة البشر، والعمل من أجل هدايتهم، فلو كان الناس مجبرين غير مخيرين، فما جدوى بعث الرسل؟ وما قيمة ما يبذلونه من جهد ووقت؟

## من أين يأتي الجبر ؟

الله تعالى له علم محيط، كما له إرادة نافذة، علمه لا يخطئ، وإرادته لا ترد، فإذا وصف إنساناً بأنه « شقي » فلن يعيش سعيداً.. أما علم الإنسان فمحدود، وكذا إرادته، فإذا قال أستاذ: إن هذا

الطالب سينجح، فقد ينجح أو يفشل، وإذا أراد شيئًا فقد يستطيع إنفاذه وقد لا يستطيع.. والإنسان يتحرك في الحياة، وهو لا يعرف علم الله عز وجل ولا إرادته، لكنه مهما تحرك فلن يخرج عنها مطلقًا، والمثال الجيد «الرزق»، فالإنسان لا ينال منه إلا ما كتب له، لا يزيد فيه ولا ينقص منه، ولا يعرف مقداره، كذلك الأجل.

والسؤال الكبير: كيف يعمل الإنسان منسجمًا ومتوافقًا مع إرادة الله عز وجل؟

**سيد قطب والمشيئة:**

يقول سيد قطب يرحمه الله[1]: «الإسلام يثبت المشيئة الإلهية المطلقة، ويثبت لها الفاعلية، التي لا فاعلية سواها ولا معها، في الوقت ذاته يثبت للمشيئة الإنسانية الإيجابية، ويجعل للإنسان الدور الأول في الأرض وخلافتها، وهو دور ضخم، يعطي الإنسان مركزًا مختارًا في نظام الكون كله، ويمنحه مجالاً هائلاً للعمل والفاعلية والتأثير، ولكن في توازن تام، مع الاعتقاد بطلاقة المشيئة، وتفردها بالفاعلية الحقيقية، من وراء الأسباب الظاهرة، وذلك باعتبار أن وجود الإنسان ابتداءً، وإرادته وحركته ونشاطه، داخل المشيئة الطليقة المحيطة بهذا الوجود، وما فيه ومن فيه، ويقرأ الإنسان في

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب، دار الشروق، ص١٤٣.

القرآن الكريم: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ (التوبة: ٥١).

لقد ضربت الفلسفات والعقائد المنحرفة في التيه، في هذه القضية، ولم تعد إلا بالحيرة والتخبط والتخليط.

في التصور الإسلامي ليست هناك مشكلة في الحقيقة، حين يواجه الأمر بمفهوم هذا التصور وإيحائه.. إن قدر الله في الناس هو الذي ينشئ ويخلق كل ما ينشئ، وما يخلق من الأحداث والأشياء والأحياء، وهو الذي يصرّف حياة الناس ويكيفها، شأنهم في هذا شأن هذا الوجود كله، كل شيء مخلوق فيه بقدر، وكل حركة تتم فيه بقدر، ولكن قدر الله تعالى في الناس يتحقق من خلال إرادة الناس وعملهم في ذات أنفسهم، وما يحدثونه فيها من تغييرات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ (الرعد: ١١).

إن كيفيات فعل الله كلها، وكيفيات اتصال مشيئته بإرادة خلقه، وإنشائه كلها، ليس بمقدور العقل البشري إدراكها.. والتصور الإسلامي يشير بتركها للعلم المطلق، والتدبير المطلق، مع الطمأنينة إلى تقدير الله وعدله، ورحمته وفضله.. فالتفكير البشري المحدود الزمان والمكان، وبالتأثيرات الوقتية والذاتية، ليس هو الذي يدرك مثل

هذه النسب، وهذه الكيفات، وليس هو الذي يحكم في العلاقات والارتباطات بين المشيئة الإلهية والنشاط الإنساني، إنما هذا كله متروك للإرادة المدبرة المحيطة. والعلم المطلق الكامل، متروك لله الذي يعلم حقيقة الإنسان، وتركيب كينونته، وطاقات فطرته، وعمله الحقيقي، ومدى ما فيه من الاختيار، في نطاق المشيئة المحيطة، ومدى ما يترتب على هذا القدر من الاختيار من جزاء».

## الشيخ الكيلاني والقدر:

لقد وجدت آراء جريئة في القدر للشيخ عبد القادر الكيلاني، شيخ الحنابلة والصوفية ببغداد في القرن السادس الهجري، يقول فيها[1]: «إن كثيراً من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، إلا أنا، وصلت إليه، وفتح لي منه «روزنة» فأولجت فيها، ونازعت أقدار الحق بالحق للحق، فالرجل هو المنازع للقدر، لا الموافق له».

ويعلق د. ماجد الكيلاني على فهم الشيخ للقدر قائلاً[2]: «استهدفت عقيدة القضاء والقدر -كما صاغها الشيخ الكيلاني- أن تكون حافزاً لنصرة الخير، ومقارعة الشر، فإذا عظمت التضحيات،

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، الطبعة الأولى، ص١٩٣.

(٢) نفسه.

وطال أمد الجهاد، كانت هذه العقيدة سنداً في لحظات اليأس وانسداد أبواب الحيلة، ومانعًا من مهاوي القنوط والانهيار.

وانطلاقًا من هذا الهدف، تحدد مفهوم القضاء والقدر فيما يلي: إن جميع الحوادث، خيرها وشرها، كائنة من الله، ولكن المؤمن مأمور أن يدفع ما يقدر من الشر، بما قدر من الخير، فيزيل الكفر بالإيمان، والبدعة بالسنة، والمعصية بالطاعة، والمرض بالدواء، والجهل بالمعرفة، والعدوان بالجهاد، والفقر بالعمل، وهكذا.

إن من الخطأ أن ينظر الناس للأقدار نظرة جزئية، فإذا رأوا الشر ظنوا وجوب الاستسلام إليه، وعدم الحيلة لدفعه.. ولو أنهم نظروا في الأمر نظرة شاملة، لأدركوا أن الله سبحانه وتعالى يلقي بالخير والشر في ساحة الحياة، ثم يترك للعبد ثلاثة اختيارات:

أن يأخذ الشر.. أن يستسلم للشر.. أن يتناول الخير ليدفع به الشر.

والأخير هو المقصود، وهو الذي امتحنت به إرادة الإنسان...

إن لكل حالة من أحوال الحياة، سعادة كانت أم شقاء، زمنًا تحل فيه، وآخر تنتهي عنده، وأزمانها هذه لا تتقدم ولا تتأخر، ولذلك فالمطلوب من الإنسان أن يعالج هذه الأحوال بالوسائل المشروعة، مع الانتظار حتى تسفر الحالة عن ضدها، بمرور زمنها، وانقضاء أجلها،

كما ينقضي الشتاء، فيسفر عن الصيف، وينقضي الليل فيسفر عن النهار، فمن طلب ضوء النهار بين العشائين، فلن يحصل عليه، بل إن ظلمة الليل تزداد حتى تبلغ نهايتها، ثم يطلع الفجر، ويحل النهار، ولو طلب إعادة الليل بعد حلول النهار لم تجب دعوته، لأنه طلب الشيء في غير وقته، فيبقى ساخطًا.. ومن شأن هذا القلق والسخط، أن يفضي به إلى سوء الظن بالله تعالى، والتخبط في معالجة الأقدار، وهكذا تفضي الحالة السيئة، إلى ما هو أسوأ».

طرح جريء قد نجد بعضه لدى الحسن البصري.

وقد وجدت سائلاً يتوجه إلى شيخ الإسلام ابن تيمية فيسأله رأيه فيما قاله الشيخ الكيلاني في القدر.

## رأي شيخ الإسلام فيما ذكره الشيخ الكيلاني:

لقد كتب الشيخ مقدمة ألخصها أولاً، لأنتقل بعدها إلى رأيه الصريح فيما قاله الشيخ الكيلاني.. يرى شيخ الإسلام أن جميع الحوادث هي بقضاء الله وقدره، وقد أمر الله تعالى أن نزيل الشر بالخير، والكفر بالإيمان، والبدعة بالسنة، والمعصية بالطاعة، وكل من كفر أو عصى فعليه أن يتوب، وعلى الإنسان عدم ترك السعي فيما ينفعه الله به، متكلاً ومحتجًا بالقدر، كما عليه مدافعة الأعداء

وجهادهم ومقاتلتهم.. ثم يقول بعد ذلك[1]: «فالذي ذكره الشيخ رحمه الله، هو الذي أمر الله به ورسوله.

والمقصود من ذلك: أن كثيراً من أهل السلوك والإرادة يشهدون ربوبية الرب، وما قدره من الأمور التي ينهى عنها، فيقفون عند شهود هذه الحقيقة الكونية، ويظنون أن هذا من باب الرضا بالقضاء والتسليم، وهذا جهل وضلال، قد يؤدي إلى الكفر والانسلاخ من الدين، فإن الله لم يأمرنا أن نرضى بما يقع من الكفر والفسوق والعصيان، بل أمرنا أن نكره ذلك وندفعه بحسب الإمكان، كما قال النبي ﷺ: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[2].

فالمؤمن إذا كان صبوراً شكوراً، يكون ما يقضى عليه من المصائب خيراً له، وإذا كان آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، مجاهداً في سبيله، كان ما قدر له من كفر الكفار، سبباً للخير في حقه، وكذلك إذا دعاه الشيطان والهوى، كان ذلك سبباً لما حصل له من الخير، فيكون ما يقدر من الشر -إذا نازعه ودافعه، كما أمره الله ورسوله-

(١) مجموع الفتاوى، طبعة ١٤١٢هـ، ٥٤٧/٨.

(٢) أخرجه مسلم.

سببًا لما يحصل له من البر والتقوى، وحصول الخير والثواب وارتفاع الدرجات...».

## مفارقة في القدر:

ثمة مفارقة في الموقف، فالإنسان إذا قام بمشروع فنجح يقول: خططت وفعلت وفعلت، فإذا أخفق أو فشل قال: هذا قدري.. وقد لا يكون كذلك، بل نتيجة تخطيط سيئ، وتدبير فاشل.

وأقرّب المسألة بمثال، فالطالب الذي تهرب من الدراسة ولا يذاكر كما ينبغي فإذا فشل في الامتحان فذلك ثمرة سلوكه، لكنه إذا استمر في حضوره، وذاكر أولاً بأول، ثم حدث حادث في الطريق إلى الامتحان جعله يتخلف، فإذا اعتذر بالقدر قُبل ذلك منه.. لكن الإنسان يحب أن ينسب لنفسه كل خير ونجاح، وكل فشل يرميه على القدر، وهنا المفارقة.

## ٥- تحمل الإنسان للأمانة:

يمكن وصف الإنسان بأنه باحث عن الأمانة، فإذا كان فقيراً جد واجتهد بكل طاقته ليحصل على المال، والمال أمانة، وفيه حقوق، وإذا مرض فعل كل شيء ليسترد عافيته، والصحة والعافية أمانة،

وإذا تزوج فلم ينجب أطفالاً، فعل كل ما في وسعه لينجب أطفالاً، والأطفال أمانة، وإذا طلب العلم حاول أن يجمع منه الكثير، والعلم أمانة.

فالإنسان بشكل عام باحث عن الأمانة، وقد تحدث القرآن الكريم عن الأمانة فقال: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (الأحزاب: ٧٢).

وقد نقل ابن كثير عن مقاتل قوله[1]: «إن الله تعالى عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال، فاعتذرت عن حملها وقالت: ليس بنا قوة، ولكنا مطيعون، ولا نعصيك في شيء أمرتنا به، ثم توجه تعالى لآدم فقال: **أتحمل هذه الأمانة وترعاها حق رعايتها؟** فقال آدم: مالي عندك؟ قال: **يا آدم، إن أحسنت وأطعت ورعيت الأمانة، فلك عندي الكرامة والفضل، وحسن الثواب في الجنة، وإن عصيت ولم ترعها حق رعايتها وأسأت فإني معذبك، وأنزلك النار**، قال: رضيت يا رب وتحملها».

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني، الطبعة «٧»، ٣/١١٨، وقد أخرج ابن أبي حاتم الخبر عن مقاتل موقوفًا.

## سيد قطب والأمانة:

تعرض سيد قطب للموضوع وأفاض فيه، يقول[1]: «إن السموات والأرض والجبال، هذه الخلائق الضخمة الهائلة، التي يعيش الإنسان فيها أو حيالها، فيبدو شيئًا صغيرًا ضئيلاً، هذه الخلائق تعرف بارءها بلا محاولة، وتهتدي إلى ناموسه الذي يحكمها بخلقتها وتكوينها ونظامها، وتطيع ناموس الخالق طاعة مباشرة، بلا تردد ولا تدبر ولا واسطة... كلها تمضي لشأنها بإذن ربها، وتعرف بارءها، وتخضع لمشيئته بلا جهد منها ولا كد ولا محاولة.. لقد أشفقت من أمانة التبعة، أمانة الإرادة، أمانة المعرفة الذاتية، أمانة المحاولة الخاصة.. ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾، الإنسان الذي يعرف الله بإدراكه وشعوره، يهتدي إلى ناموسه بتدبره وبصره، ويعمل وفق هذا الناموس بمحاولته وجهده، يطيع الله بإرادته وحمله لنفسه، ومقاومة انحرافاته ونزعاته، ومجاهدة ميوله وشهواته، وهو في كل خطوة من هذه الخطوات مريد مدرك، يختار طريقه، وهو عارف إلى أين يؤدي به هذا الطريق. إنها أمانة ضخمة، حملها هذا المخلوق الصغير الحجم، القليل القوة، الضعيف الحول، الذي تناوشه الشهوات والنزعات والميول والأطماع.

---

(١) في ظلال القرآن، الطبعة السادسة، ٦/٦١٧.

إنها المخاطرة أن يأخذ الإنسان على عاتقه هذه التبعة الثقيلة، ومن ثم ﴿ كَانَ ظَلُومًا ﴾ لنفسه ﴿ جَهُولًا ﴾ لطاقته، هذا بالقياس إلى ضخامة ما زج بنفسه لحمله، فأما حين ينهض بالتبعة، حين يصل إلى المعرفة الواصلة إلى بارئه، والاهتداء المباشر لناموسه، والطاعة الكاملة لإرادة ربه، والاهتداء والطاعة التي تصل في طبيعتها وفي آثارها إلى مثل ما وصلت إليه من سهولة ويسر وكمال، في السموات والأرض والجبال، الخلائق التي تعرف مباشرة، وتهتدي مباشرة، وتطيع مباشرة، ولا تحول بينها وبين بارئها وناموسه وإرادته الحوائل، ولا تقعد بها المثبطات عن الانقياد والطاعة والأداء.

حين يصل الإنسان إلى هذ الدرجة، وهو واع مدرك مريد، فإنه يصل حقًا إلى مقام كريم، ومكان بين خلق الله فريد، إنها الإرادة والإدراك والمحاولة، وحمل التبعة، وهي ميزة هذا الإنسان على كثير من خلق الله، وهي مناط التكريم، الذي أعلنه الله في الملأ الأعلى، وهو يُسْجِد الملائكة لآدم.

وأعلنه تعالى في قرآنه، وهو يقول: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ (الإسراء: ٧٠)، فليعرف الإنسان مناط تكريمه عند الله، ولينهض بالأمانة التي اختارها، والتي عرضت على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها.. فاختصاص الإنسان بحمل

الأمانة، وأخذه على عاتقه أن يعرف نفسه، ويهتدي بنفسه، ويعمل بنفسه، ويصل بنفسه.. هذا كان ليحتمل عاقبة اختياره، وليكون جزاؤه من عمله، وليحق العذاب على المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات، وليمد الله يد العون للمؤمنين والمؤمنات، فيتوب عليهم مما يقعون فيه، تحت ضغط ما ركب فيهم من نقص وضعف، وما يقف في طريقهم من حواجز وموانع، وما يشدهم من جواذب وأثقال، فذلك فضل الله وعونه، وهو أقرب إلى المغفرة والرحمة بعباده...».. حاولت نقل النص، بهدف نقل الفكرة كاملة.

والخلاصة: إن الإنسان حامل أو متحمل أمانة، وهو يطلبها ويشتد في طلبها، ويبقى السؤال: ما هي هذه الأمانة؟

فمن قائل: إنها المسؤولية، ومن قائل: إنها الحرية.. والذي أعتقده وأتصوره أنها كل ما يؤتمن عليه الإنسان من قول أو فعل، وإنها المسؤولية.. فمن يجحد ما وضع عنده فقد خان الأمانة، ومن سمع كلاماً فحرفه فقد خان الأمانة، ومن كان لديه علم فتلاعب به فقد خان الأمانة، ومن نافق لحاكم ظالم فقد خان الأمانة، وكل حاكم أو رئيس يسند منصباً لغير كفء فقد خان الأمانة، وكل مستشار يداري ويجامل فقد خان الأمانة، وكل مدرس لا يؤدي واجبه فقد خان الأمانة، وكل موظف يتهرب من العمل فقد

خـان الأمـانة، وكل أب أو أم يقـصـر تجاه تربيـة أولاده فـقـد خـان الأمانة، وكل تاجر يبيع بضاعة فاسدة أو مغشوشة فقد خان الأمانة، وكل سياسي يداهن في قضايا الأمة فقد خان الأمانة، وكل إعلامي يتلاعب بالخبر، فقد خان الأمانة . . . إلخ .

ومن هنا يمكن فـهم ما ورد في الأثـر: إذا فقدت الأمانة فانتظروا الساعة، ومن علاماتها أيضًا ضياع الأمانة . . ومن علامات الساعة: أن تتخذ الأمانة مغنمًا . . ومن علامات المنافق: إذا اؤتمن خان .

### ٦- قوة الإنسان وضعفه:

يملك الإنسـان قـدرات كـبـيـرة للارتفـاع بنفـسـه إلى مـصـاف الملائكة، كما يملك قدرات مماثلة للهبوط بنفسه إلى درك سحيق، وهو في كل ذلك تتنازعه نوازع للارتفاع والهبوط، فيعيش متذبذبًا لا يقر له قرار، فهو ليس بالقوي أبدًا ولا بالضعيف دائمًا، والشعوب والأمم كذلك . . فهي بين ضعيف يتقوى مع الأيام، وقوي يضعف . . ضعيف ينهزم ويتأخر، وقوي ينتصر ويتقدم، فالقوة ليست أبدية، والضعف ليس سرمديًا، ومن سنن الحضارة التداول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠) .

لقـد سـجـل القـرآن الكريـم هذه الـحقـيـقـة مـرارًا، يقـول الله سبحانه وتعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾

(النساء:٢٨)، ويقول: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (المعارج:١٩-٢١).

ثم يبين الحق كيف ينتقل الإنسان من قوة إلى ضعف، وبالعكس: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ (الروم:٥٤). والله تعالى يكشف هذه الحقائق للإنسان ليعرف نفسه، فلا يطغى في فترة قوته، وكذلك الأمة، ولا يستكين ويستخذي في فترة ضعفه، وكذلك الأمة.. كما يخبره أن استمرار الحال أبداً، من المحال.. فالأقوياء لا يبقون ضعفاء أبداً، ولا الضعفاء يعيشون كذلك أبداً، بل الحياة رحلة بين القوة والضعف، يستوي في ذلك الفرد والأمة والحضارة، والكافر والمؤمن والمنافق.

إن الإنسان يولد ضعيفًا، وربما كانت طفولته أضعف من سائر الحيوانات، ففرخ الدجاج يستطيع تناول غذائه بعد ساعات من خروجه من البيضة، ومثله الخروف والعجل، أما طفولة الإنسان فهي الأطول، ولو ترك لحاله لمات لضعفه وعجزه.

وكثير من الحيوانات تبلغ خلال عام، ويمكن أن تحمل وتلد، إلا الإنسان فيحتاج مدة تقارب العشرين عاماً.

يقول سيد قطب[1]: «... ولكن هذا الإنسان في التصور الإسلامي -كما هو في الحقيقة- على كل ما استودعه الله من أمانة الخلافة الكبرى، على هذا الملك العريض، وعلى كل ما سخر له من القوى والطاقات والأشياء والأحياء، وعلى كل ما أودعه من طاقات المعرفة والاستعداد، لإدراك الجوانب اللازمة له في الخلافة، من النواميس الكونية، على كل هذا هو مخلوق ضعيف، تغلبه شهواته أحيانًا، ويحكمه هواه أحيانًا، ويقعد به ضعفه أحيانًا، ويلازمه جهله بنفسه في كل حين، ومن ثم لم يترك أمر نفسه ومنهجه في الحياة لشهواته وهواه وضعفه وجهله، ولكن أكمل الله عليه نعمته ورعايته، فتولى عنه هذا الجانب، الذي يعلم سبحانه أنه لا يقدر عليه قدرته على المادة، ولا يعلم بمقتضياته علمه بقوانين المادة».

الله تعالى يعلم طبيعة الإنسان، وحبه لنفسه، كما علم أنه لو تركه يشرِّع لسعى جاداً لحفظ مصلحته، على حساب مصالح الآخرين، لذا جعل التشريع حقًا لنفسه تعالى، ومنح الإنسان حق التنظيم فقط، ولكن الإنسان يأبى إلا أن ينتزع هذا الحق انتزاعًا.

وعن تذبذب الإنسان، ارتفاعًا إلى الأعلى، وهبوطًا إلى الأسفل، يقول د. سيد حسين نصر[2]: «إن الإنسان قادرعلى الارتفاع فوق

---

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة، ص٢٥.

(٢) الإسلام: أهدافه وحقائقه، الشركة المتحدة، بيروت، ص٣٣.

مستوى الملائكة، والهبوط حتى يكون بمستوى الشيطان». ومعلوم أن الأحياء -غير الإنسان- مشدودة إلى مستوى معين من الحياة لا يتغير، إلا الإنسان فهو يرتفع حيناً ويهبط حيناً آخر.

وهذه القدرة، أو حرية الاختيار، هي مكمن الخطر، فالإنسان بفضل هذه الحرية يملك أن يعبد الله تعالى ويعمر الأرض، كما هو قادر أن يكون ملحداً كافراً، وعنصراً هادماً مخرباً.

من هنا وجدنا تاريخ البشرية تدافعاً بين الحق والباطل، بين الخير والشر، بين الإنسان والشيطان.. وليس صحيحاً أن تاريخ الإنسانية هو مجرد صراع بين طبقات الناس بسبب المادة ومن أجلها! فالإنسان أكبر من أن يكون (دابة) همها العلف، وقد كرمه خالقه، وجعله خليفة في الأرض، ليس ليتصارع حول العلف، ولكن لمعاني أكبر من ذلك كثيراً.. وإن كان الصراع واحداً من حقائق الحياة.

والدنيا فطرها الله وخلقها لتكون للبشر كافة، مؤمنهم وكافرهم، وكل يأخذ حقه وقسطه، لا يمنع الكافر من أخذ نصيبه، بسبب كفره، ولا يدارى المؤمن لإيمانه، فالله تعالى يعطي المؤمن والكافر، المؤيد والمعارض، وليس كما يفعل بعض الناس، فيمنحون المؤيد ما يريد، ويمنعون المعارض من أي حق يريد. يقول الحق: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء: ٢٠).

## ٧- الإنسان والمجتمع:

ما موقع الفرد من المجتمع؟ هل الفرد ذرة والمجتمع مجموع ذرات، أم الفرد أصل والمجتمع مجموعة مجموعة أفراد لا غير؟ هل الفرد حقيقة واقعة ينبغي أن تدرك بذاتها، أم أن المجتمع هو الحقيقة، كلٌ قائم بذاته، وأن الفرد ليس إلا جزءاً من هذا الكل؟ وأن هذا الجزء لا يفهم له وجود إلا في الكل؟ لكل وجهة نظر، ناصر ومؤيد.

يولي توينبي المسألة عناية خاصة، فيتحدث عن المجتمع قائلاً[1]: «إنه نظام العلاقات بين الكائنات البشرية، ولا تقتصر تلك الكائنات على مجرد كونها أفراداً، فإنها كذلك حيوانات اجتماعية بمعنى أنها تعجز عن البقاء على الإطلاق إن افتقرت إلى وجود هذه العلاقة بين بعضها بعضاً... وبالتالي فإن المجتمع هو حصيلة العلاقات بين الأفراد، وتبرز هذه العلاقات من بين ثنايا تطابق أفعالهم الشخصية، ويوجد هذا التطابق في الميادين الشخصية، في نطاق أرضية مشتركة، وهذه الأرضية المشتركة هي ما ندعوه بالمجتمع.

إن ارتضينا هذا التعريف انبثقت عنه نتيجة هامة، تمتاز بالوضوح، مدارها: إن المجتمع هو ميدان الفعل، إلا أن مصدر الفعل بأسره، مرجعه الأفراد، الذين يتكون منهم المجتمع...».

---

(١) مختصر تاريخ العالم، ص٣٥٢.

والسؤال المهم: ما طبيعة العلاقة بين الفرد والمجتمع؟

يعتقد الكثير أنها علاقة صراع، يريد الفرد أن يوسع في دائرة حريته، فلا يسمح له المجتمع بذلك، فيشعر أن مجتمعه يضغط عليه، ويحول أحيانًا دون تحقيق طموحاته، فيسعى لتحطيم القيود التي تفرض عليه.. وقد يحصل أن يعتدى على الفرد، وتصادر بعض حقوقه باسم المجتمع، عندها يكره الفرد مجتمعه، ويعمل ضده.

خارج هذه الدائرة (الصراعية) تكون العلاقة أفضل وأسلم، فلا يستغني الفرد عن مجتمعه، ولا المجتمع عن الفرد.

والإنسان يحمل في نفسه نزعتين: فردية وجماعية، وهو محب لفرديته، يريد أن يستقل، ليحقق لنفسه أموراً كثيرة، وفي ذات الوقت هو محب لبني جنسه، يتطلع للعيش معهم بسلام، والاجتماع بهم.. وهو متذبذب بين النزعتين لا يستقر على واحدة، لكن يوجد أفراد تغلب فرديتهم على جماعيتهم وبالعكس.

والإسلام يمنح الفرد حقوقًا واضحة، ويوجب عليه واجبات تجاه مجتمعه، فالمسؤولية فردية ولا يؤاخذ إنسان بجرم ارتكبه أبوه أو أخوه مثلاً، وليس من حق أحد أن يعتدي على إنسان، أو يتجسس على خصوصياته.. كما منحه الإسلام حرية التملك، ومنع الاعتداء على الأموال، فهي مصونة، وشرط على الفرد أن

لا يضر بمجتمعه، إذ «لا ضرر ولا ضرار»، و«الضرر يزال».. وقد شجع الإسلام على الأخوة ومحبة الآخرين، فـ«**خير الناس أنفعهم للناس**»[1].

وقد أمن الإسلام للفرد حريته الدينية والمدنية والسياسية، وفي المقابل ألزمه بواجبات، فجعل الكل مسؤولاً عمن استرعاه، ممن هم تحت يده.. ويصور الله تعالى العلاقة الاجتماعية، فيقول: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ (التوبة: ٧١).

فالعلاقة حميمة، والأمر بالمعروف سلطة منحها الله للمجتمع، ليراقب الفرد، فيمنع اعوجاجه.. والصلاة رابطة اجتماعية، والزكاة كفالة مالية، والكل يتحرك ضمن طاعة الله وطاعة رسوله، فنظامهم واحد، وتوجههم واحد، وتكافلهم واحد، وعبادتهم واحدة.

إن الإسلام يولي عنايته للفرد والمجتمع على حد سواء، فهو يتحدث عن الأنبياء مثلاً، ثم يعقبه بما فعلت الشعوب والأمم..

---

(١) جزء من حديث أخرجه الدارقطني عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وصححه السيوطي في الجامع الصغير.

إنه يذكر الأفراد الجيدين من الأنبياء والصديقين والشهداء، كما يذكر السيئين.. كما يذكر الشعوب وماذا فعلت، لكنه يختلف عن التوراة مثلاً، فلا يذكر القرآن الوقائع التاريخية بتفاصيلها إلا نادراً، كما لا يذكر أبناء الأنبياء إلا إذا كان لذكرهم مبرر.

أما التوراة فتذكر كل شيء، فهي سرد للتاريخ، تذكر الأنبياء ونساءهم وأولادهم، وعمر كل، فتقع بسبب ذلك بأخطاء قاتلة، فقد نجد في أخبار المعارك أن جيشًا قوامه ٦٠٠ ألف مقاتل، قاتل جيشًا قوامه ٤٠٠ ألف، ولأن هذا مستحيل تصوره قديمًا، فقد وجدنا الأرقام صارت ( ٦ ) آلاف ضد ( ٤ ) آلاف.. وفي ذكر تاريخ الميلاد، قد وجدنا الابن مولوداً قبل أبيه، وخلاف: هل ( س ) زوجة النبي أم أمه؟ كما نجد أن نبيًا مثل موسى عليه السلام له أولاد، رواية تذكر أنهم ثلاثة وثانية تجعلهم سبعة، وهكذا.

إن منحى التوارة تاريخي، بينما اتجاه القرآن نحو تفسير التاريخ، وأخذ العبرة، لذا لا نجد في القرآن التفصيلات التي نجدها في التوراة.

في القرآن التركيز الأول نحو نقل الحوار بين الأنبياء وشعوبهم، وماذا حدث حين آمنوا أو لم يؤمنوا.. التوراة تركز على التفاصيل، فتذكر عدد المقاتلين في المعارك، وعدد القتلى، وعدد الغنائم، وإن

ذكرت بعض الحوارات قدمت لها بتفاصيل لا يهتم بها أحد اليوم[1].

إن التاريخ صناعة مشتركة بين البطل والأمة، النبي وأنصاره، ولم يبخل القرآن عن ذكر البعض ، ولو كان كافراً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ (القصص:٨)، ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ (القصص:٣٩)، ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ (الأنفال:٦٣).

وإذا كان المبدع هو حادي الأمة، فإن الجمهور هو الصانع الفاعل، قائد الجيش يخطط، وجنوده تنفذ، والنصر ليس من فعل وتخطيط القائد فقط، ولا من عمل الجنود فقط، ولكن النصر يتأتى من الخطة الجيدة، والتنفيذ الحسن، فالجنود بحاجة لقيادة جيدة، والقائد بحاجة لجند مطيع وشجاع.. وفي هذا الصدد كتب د. عماد الدين خليل: «... وبينما تنحرف المفاهيم الوضعية باتجاه الفردية، حتى تصل بالفرد إلى مرتبة الألوهية، تاركة الجماهير تحت رحمة الطغيان الفردي هذا، أو باتجاه الجماعية حيث تصل بالطبقة إلى مرحلة الألوهية، تاركة الفرد كوحدة ذاتية متميزة مستقلة، تحت رحمة

(١) للكاتب بعض الدراسات في هذا الميدان مثل: «الماسونية واليهود والتوراة، إسرائيل الخطر والمخادعة، اليهود والتحالف مع الأقوياء».

الطغيان الجماعي، نجد الإسلام يحفظ التوازن ويحميه، عبر سلسلة طويلة من التوجيهات والتشريعات والآداب والممارسات الأخلاقية، التي لا مجال لذكرها هنا...

أما القرآن فإنه يتجاوز هذا كله، لكي يعطي الدور لطرفي المسألة، ويعلق المسؤولية الكاملة في صياغة الواقع على الفرد وعلى الجماعة: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٤).

فلا ينفرد الفرد بصناعة التاريخ، ولا يستقل بذلك المجتمع، بل هو نتاج هذا وذاك»[١].

وأختم البحث بكلمة (لآلبان)، حيث يقول[٢]: «... ورعاية الإسلام للفرد واهتمامه به بالقدر الوافي، شيء واضح تمامًا، وهو يصر أيضًا على الاهتمام بالجماعة بوصفها ذاك.

والله تعالى يصدر حكمه على الأمم، ويشير القرآن في مواضع كثيرة إلى القرى التي ازدهرت أو أهلكت بما قدمت يداها من طاعة أو عصيان، للسنن الخلقية...».

---

(١) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص١٦٧.

(٢) التاريخ وكيف يفسرونه، ص٩٣.

## رابعًا: المسلم والشهادة على الناس

الإنسان صانع الحضارة، برقيه ترقى وتزدهر، وبتأخره تتأخر وتتدهور، والتحضر عمل شاق، يتطلب جهداً خارقًا، تصميمًا قويًا، كما يتطلب توفر إمكانات، وله شروط ينبغي أن تكون مواتية، لذا لم يعرف العالم حضارة قامت بقرار سياسي، أو سقطت بقرار سياسي، بل لا بد من تجمع أسباب، وتوفر عزم وتصميم، وقد كرم الله تعالى أمتنا فجعلها شاهدة على الأمم، وجعل رسولنا عليه الصلاة والسلام شاهداً على أمته، يقول الحق: ﴿ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (الحج: ٧٨).

يقول سيد قطب يرحمه الله[١]: «فالرسول عليه الصلاة والسلام يشهد على هذه الأمة، ويحدد منهجها واتجاهها، ويقرر صوابها وخطأها، وهي تشهد على الناس بمثل هذا، فهي القوامة على البشرية بعد نبيها، وهي الوصية على الناس، بموازين شريعتها وتربيتها، وفكرتها عن الكون والحياة، ولن تكون كذلك إلا وهي أمينة على منهجها العريق، المتصل الوشائج، المختار من الله تعالى.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/٦٣٢.

ولقد ظلت هذه الأمة وصية على البشر، طالما استمسكت بذلك المنهج الإلهي، وطبقته في حياتها الواقعية، حتى إذا انحرفت عنه، وتخلت عن تكاليفه، ردها الله عن مكان القيادة إلى مكان التابع، في ذيل القافلة، ولا تزال كذلك حتى تعود إلى هذا الأمر الذي اجتباها له الله عز وجل.

وهذا الأمر يقتضي الاحتشاد له والاستعداد، ثم يأمرها القرآن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله... بهذه العدة تملك الأمة المسلمة أن تنهض بتكاليف الوصية على البشرية، التي اجتباها لها الله، وتملك الانتفاع بالموارد والطاقات، التي تعارف الناس على أنها مصادر القوة في الأرض. والقرآن الكريم لا يغفل من شأنها، بل يدعو إلى إعدادها، ولكن مع حشد القوى والطاقات والزاد الذي لا ينفذ، والذي لا يملكه إلا المؤمنون بالله، فيوجهون به الحياة إلى الخير والصلاح والاستعلاء.. إن قيمة المنهج الإلهي للبشرية أنه يمضي بها قدماً إلى الكمال المقرر لها في هذه الأرض، ولا تكتفي بأن تقودها اللذائذ والمتاع وحدهما، كما تقاد الأنعام.

إن القيم الإنسانية العليا لتعتمد على كفاية الحياة المادية، لكنها لا تقف عند هذه المدارج الأولى، وكذلك يريدها الإسلام، في كنف الوصاية الرشيدة المستقيمة على منهج الله تعالى».

## مستلزمات الشهادة:

إن هذه الشهادة شيء كبير، وشرف عظيم، لذا فهي تتطلب شروطًا لا تتحقق بالكسل أو التخلف.

فالشهادة والريادة، في عالم اليوم، تتطلب عقيدة سليمة، وثقافة حية، والتزامًا صارمًا بمنهج الله تعالى، لذا جاء الأمر في الآية بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله. وقد ظلت أمتنا قرونًا كثيرة، تقوم بهذه الريادة والشهادة ثم بدأ «العد التنازلي»، فتركت القيادة لتصبح في ذيل القافلة.

إن الشهادة والريادة ليسا مما تورث، وقيادة العالم اليوم هي للغرب الصناعي، وعلى من يتطلع لدور حضاري أن يكون لديه شيء يقدمه، فإن كان حافيًا خليًا فمكانه في المؤخرة، وليس في القيادة أو الريادة، وإذا كان بعض «الحالمين» يغالط نفسه بادعاء أن الله تعالى اختاره وفضله على كل البشر، وأنه يرث ذلك عن أجداده، فتلك أسطورة عفا عليها الزمن، وتنكرها سائر الأمم.

ونحن -بحمد الله- لا نعيش على أوهام أو أساطير، ونحن نقرأ صباح مساء قول الحق: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾ (النجم: ٣٩-٤١).

إن الغرب يمسك بقيادة العالم، فكريًا وسياسيًا وصناعيًا

وإعلاميًا، ولن نستطيع مزاحمته في أكثر هذه الميادين، لكننا نملك عقيدة وفكرًا، لا يملكها الغرب، ونملك آخر الأديان السماوية ولدينا كتاب رباني هو آخر الكتب السماوية، وقد تعهد الله بحفظه، ولدينا سنة تردفه وتبين ما في هذا الكتاب، فإذا التزمنا شريعة الله، وأحسنا عرضها، وصدقنا في التطبيق، فبإمكاننا أن نقدم للعالم شيئًا يحتاجه، لكنا لا نغالط أنفسنا، ولا نعيش على وهم كاذب، بأن تكون لنا صناعة، في القريب العاجل، أفضل من صناعة الغرب، ولا زراعة أفضل مما لدى الغرب ولا إعلام.. .إلخ.

بضاعتنا الوحيدة بضاعة ربانية، تكفل السعادة للإنسان في دنياه وآخرته، جربناها قرونًا، ونعمل جاهدين للعودة إليها بصدق وإخلاص وموضوعية، وأملنا أن يمدنا الله بقوته، ويسدد خطانا، وسندنا في ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

إن شهادتنا على العالم شهادة علم ومعرفة وهداية، وحين سقطنا في الجهل ذهبت أهلية تلك الشهادة، بل صرنا مشهوداً علينا، وإن صارت شهادة «زور»، وعوملنا -وما نزال- أسوأ معاملة. كل حسن لدينا فهو مأخوذ من (الغير)، وكل قبيح يشنع به علينا.

القنابل تنفجر، والسيارات المفخخة تنفجر في إيرلندا أسبوعياً،

ومنذ نصف قرن تقريبًا، لكن لا أحد يقول هذا إرهاب كاثوليكي أو بروتستانتي.. فإذا استعمل السلاح فرد مسلم غير منضبط، صرخ الإعلام: إرهابي مسلم، وإذا قام طبيب يستعمل سلاحًا حكوميًا، ورش الناس وهم يصلون في الخليل، وهم في حالة سجود يقال لنا هذا رجل «مختل»!

لقد صار الإرهاب حكرًا على المسلم، في الإعلام الغربي، وحيثما أطلقت رصاصة، يسند الفعل لمسلم، قبل أن يعرف الفاعل، إنها شهادة مزورة تتعالى منها رائحة العنصرية النتنة!

إن الشهادة على الناس في حقيقتها، إظهار للحق، وتبيينه وتبليغه للناس[1]. وطبيعي أن تقوم على معرفة الحق، الذي يراد بيانه وتبليغه، ومعرفة الحق «العلم»، وإذن فينبغي أن تكون الشهادة قائمة في أصلها وأساسها على «العلم»، فشهادة العلم هي الشهادة المطلوبة.. وبهذه المناسبة أجد من المفيد أن استطرد، بهدف إيضاح قضية، قد يكون فيها نوع من الغموض، فالعلم متى كان وصفًا موضوعيًا، وجوابًا عن «كيف»، فلا اعتراض، ولكن الاعتراض على فلسفة العلم فقط، وهذا يشاركهم فيه بعض علماء الغرب مثل «يهوم ومل».

---

(١) التحرير والتنوير، الشيخ ابن عاشور، ٢/٢١.

يقول د. الموصلي[1]: «من الواضح أن الأصوليين لا يرفضون العلوم بحد ذاتها، بل فلسفتها، فالعلوم عندهم وسيلة وأداة، وهذا مشابه لما دعا إليه «ستيورت مل» في قوله: إن العلم هو وصف وظائفي لحقائق ناتجة عن الملاحظة والتجربة.

فآراء الأصوليين كآراء (مل وهيوم) وهي ضد هذا التنظير الفكري، لأنها تشك في قدرة الإنسان على التوصل للحقيقة، سواء أكان ذلك عن طريق الفلسفة أم العلوم، أم فلسفة العلوم».

إن فلسفة العلوم قد تحولت إلى دين، لكنه ليس ديناً جديداً فقط، بل فوق الأديان كلها.

وصار البعض يعتقد أن العلم قد اكتشف أسرار الكون، وهو قادر على حل كل المشاكل، وكل قضية لا يحلها العلم، فهي مشكلة «ميتافيزيقية» زائفة، وهنا مكمن الخطر، ومن هنا يأتي الاعتراض على «كهنة العلم».

**١- شهادة المعرفة:**

إن الشهادة تتطلب معرفة، ولا تقبل شهادة من غير معرفة، وإذا شك الشاهد في شهادته سقطت، فكيف إذا لم يكن له علم ولا معرفة؟!

---

(١) مجلة الاجتهاد اللبنانية، العدد «١٠»، ص٢١٥.

ولكن السؤال: هناك اليوم علوم ومعارف أكثر من أن تعد وتحصى، فما المقصود بالمعرفة هنا؟

«تعني شهادة العلم في سياق جعل الأمة الإسلامية شاهدة على الناس، أن تكون هذه الأمة قائمة في عقيدتها وفي عملها على السعي الدائم للعلم بالحقائق، وتأسيس الحياة عليها، بعيداً عن كل منزع خرافي أو وهمي أو أسطوري، في تصور «الوجود والحياة»، وذلك ما يفسر تلك الدعوة الدؤوب إلى العلم، التي جاءت مبثوثة في تعاليم الدين، بشكل لا يوجد له نظير في أي دين آخر، حتى جاءت قيمة العلم في المذهبية الإسلامية، تتبوأ الدرجة الأولى في سلم القيم، وتنبني عليها كل القيم الأخرى»[1].

واستذكر ما سبق نقله عن حجة الإسلام الغزالي، بأن ثمة تلازماً قوياً بين علوم الدين وعلوم الدنيا، فمن تعلم علماً واحداً فلا يكفي. من تعلم علوم الحياة فقط فلا نصيب له في الآخرة، ومن تعلم علوم الدين وجهل علوم الحياة فإن فهمه للدين سيكون ناقصاً.. وإذن فلا بد من العلمين معاً.

كما لا بد أن يكون العلم شاملاً كي تصل الأمة الإسلامية إلى موقع تشع فيه على البشرية الخير، وهنا لا بد من معرفة جيدة

---

(١) فقه التحضر الإسلامي، د. عبد الحميد النجار، طبعة ١٩٩٩م، ١/٩٣.

بالتحضر، والكيفية المناسبة له، وهذا يتطلب معرفة جيدة بالدين، والكون والبشر، وبدون هذه المعرفة الشاملة ستتعذر الشهادة، ففاقد الشيء لا يعطيه، ولن يجنى من الشوك العنب.

**٢- المعرفة بالدين:**

منطلق المسلم دينه، فمعرفته معرفة جيدة سليمة، تسهل الانطلاق.. والإسلام دين سهل، يخلو من التعقيد، ولذا كان الصحابي يدركه بيسر وسهولة، كما يدرك أهدافه وأبعاده.

لقد أرسل رسول الله ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه لليمن لجمع الزكاة، فطلب إلى أهل اليمن أن يعطوه قماشاً بدلاً من الزكاة العينية، وعلل ذلك بقوله[1]: «إنه أهون عليكم، وخير للمهاجرين بالمدينة».. وحين فتحت العراق على عهد الخليفة الراشد عمر رضي الله عنه، رفض توزيع الأرض على المجاهدين، وبقي ستة أشهر يناقش كبار الصحابة، وكانت حجته أنه يريدها مورداً لبيت المال أولاً، وكي لا يتحول المجاهدون إلى مزارعين، ويتركوا الجهاد.

وروي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه سئل عن قوله ﷺ: «**غيّروا الشيب ولا تشبهوا باليهود**»، فقال: إنما قال عليه الصلاة والسلام ذلك والدين قُلّ -أي المسلمون قلة- فأما الآن وقد اتسع

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي، كتاب الزكاة، ٤/١١٣.

نطاقه وضرب بجرانه، فامرؤ وما اختار[1] . . والشواهد كثيرة.

إن الإسلام نصوص من كتاب الله وسنة رسوله، والأخذ منها مباشرة سهل ميسور، متى علم الإنسان العربية، مفردات ودلالات، وعلم أسباب النزول وكليات الشريعة.

إذن ليس المقصود بالعلم بالدين، العلم المتخصص، فذلك من نصيب نخبة من علماء الشريعة، ولكن المقصود قدر مشترك من المعرفة الصحيحة، تشتمل على أصول العقيدة، ومتطلبات العبادة الصحيحة، والأخلاق الإسلامية، بعيداً عن التأويلات الباطنية، والتي ترفضها اللغة.

وأيضًا فليس المطلوب علمًا نظريًا، لا يكون له في السلوك نصيب، فيكون التنظير بواد والعمل والفعل بواد آخر، واستذكر هنا أن اليابان حين عزمت على النهوض، توجهت إلى الصناعة وعلومها، ولم تتوجه للدراسات النظرية، وما زال هذا التوجه حتى اليوم، وكافة البعثات التي أرسلتها إلى الغرب، لم تجعل من أهدافها دراسة الفلسفة أو علم الاجتماع أو القانون، على حين كان العربي المبتعث يغلب على دراسته العلوم النظرية والآداب والقانون، ولم يعدَّل التوجه إلا أخيراً.

---

(١) نهج البلاغة، مؤسسة المعارف، ١٩٨٨م، ص٦٨٣.

وحين انشغل المسلمون بالفلسفة وعلم الكلام، واشتغل الفقهاء بالفقه الافتراضي، صار العلم يعالج قضايا لا وجود لها في المجتمع على حساب قضايا موجودة، لا تجد من يعالجها.. والذين هاجموا علم الكلام، من علماء الأمة، كانوا يرون فيه (ترفًا فكريًا) يخترع المتكلم مشكلة، أو يطرح إشكالاً، ثم يحاول حله، وقد يفلح أو لا يفلح.. من هنا رأينا عالمًا مثل الشاطبي، كان همه الأول التعرف والتعريف بمقاصد الشريعة، يقول[1]: «كل مسألة لا ينبني عليها عمل، فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي، وأعني بالعمل عمل القلب وعمل الجوارح، من حيث هو مطلوب شرعًا».

والعلم حين يشيع في الأمة، يتنافس في الحصول عليه الكل، وبهذا نفسر انتشار المدارس والكتب في العالم الإسلامي، حتى قال «ديورنت» في كتابه الرائع «قصة الحضارة»: إن مكتبة الصاحب ابن عباد الشخصية، كانت تحوي من الكتب أكثر مما تحويه كافة المكتبات العامة في أوروبا كلها.

كذلك فإن الإسلام انتشر في شرق إفريقيا وجنوب شرق آسيا عن طريق التجار، الذين لفتوا الانتباه بجودة سلوكهم، فكانوا دعاة

---

(١) الموافقات، ٤٦/١.

للإسلام بالفعل لا بالقول، واليوم يسجل الطلبة المبتعثون، والدارسون في الغرب، نجاحًا في الدعوة رغم قلة العلم، ولكن حسن السلوك هو «الجاذب» الأكبر.

من السهل أن يكون الإنسان «منظرًا»، ولكن الأنفع أن تكون حياته وسلوكه صورة لما يؤمن به، ويدعو له.

إن الإسلام يواجه اليوم أكبر حملة إعلامية ظالمة ضده، ومع ذلك فهو يسجل الانتصار بعد الانتصار، وإذا كان البعض يكسب بعض الفقراء لتقديمه المال والطعام، فالإسلام يكسب من رجال الفكر والعلم.. والغريب أن أكبر حملة ضده في الغرب تتركز حول المرأة، ثم نجد الإسلام ينتصر وينتصر في صفوف النساء.. إنه دين يشق الطريق بقوته وليس بفضل الأموال التي تنفق، ولا الكنائس الفخمة التي تشاد، ثم لا تجد من يزورها.. وقد صدق من قال: النصرانية دعوة بلا دين، والإسلام دين بلا دعوة.

إن العالم الإسلامي يشهد صحوة لم يعرفها منذ زمن بعيد، ومعرفة المسلم بدينه تزداد يوميًا، والالتزام به يكبر يوميًا، رضي الأعداء أم سخطوا، اتهموا المسلمين بالإرهاب أم لم يتهموا، فقد وعد الله تعالى بنصر دينه حيث قال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: ٥٣).

### ٣- المعرفة بالكون:

سبق في بداية هذا الكتاب، أن تحدثت عن الكون، وموقف المسلم منه، وأريد هنا التركيز على الجانب المعرفي للكون، فهو كتاب مفتوح، وأثر عظيم من آثار الله تعالى المنظورة والمحسوسة.. أما الوحي فهو الكتاب المقروء والمعجز، ولذا فلدينا كتابان: منظور مشاهد، ومتلو مبارك.

والدارس لكتاب الله يكسب العلم بالدين، والمتأمل في الكون يتحصل على علم عظيم، فدقة صنع الكون وعظمته، تدل على عظمة خالقه، وهو من آيات «الآفاق»، ودراسته ومعرفة السنن التي تضبط حركته توصل إلى الإيمان العميق بالله، وعظيم قدرته.

إن الكون خلقه الله تعالى وسخره للإنسان، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لقمان: ٢٠).

وهذا التسخير كي يكون على الوجه الأكمل، فلا بد من معرفة جيدة بالكون وسننه، والقوانين التي تضبطه، لينتقل الإنسان من العلم بأوجه التطبيق والترابط، إلى النواميس التي تحكم الكون، كي يستثمره الاستثمار الأفضل والأنفع، وكي تتقى المضار والأخطار والكوارث الطبيعية، وكذلك تنمية الثروات الكونية على الأرض

والبحار والجو، وإيقاف الاستنزاف لتلك الثروات.

إن الغرب يقف من الكون موقفًا معاديًا، وعبارة قهر الطبيعة تتردد كثيراً، وكذلك فإن الاحترام للصناعة وأهلها، وكل ما هو غير صناعي فلا يستحق الاحترام، وقد تقدم هذا في بحث الكون، وما قاله عالم الاجتماع أريك فروم.

ولعل من الثمار المرة لهذه النظرة تلوث البيئة، وحصول ثقب الأوزون، وارتفاع حرارة الأرض والمحيطات، وربما سنكتشف أن رش المبيدات هو المسبب للكثير من أمراض السرطان، وربما كان للتفجيرات النووية وأمثالها، التأثير الكبير على ثوران البراكين، أو كثرة الزلازل.

إن الإنسان في الغرب يلوث البيئة، ويستهلك خيراتها، بأضعاف ما يفعله الإنسان في الهند مثلاً.

وقد وجدت الشيخ سعيد النورسي يرحمه الله، يتحدث عن الطبيعة، فيصفها بأوصاف جميلة، حتى كأنه شاعر صوفي(١): «الطبيعة صنعة إلهية وليست بصانع، كتاب رباني وليست بكاتب، نقش ولا يمكن أن يكون نقاشًا، دفتر وليست (دفتردار)، قانون وليست قدرة».

---

(١) الفكر الأدبي والديني عند سعيد النورسي، د. سمير رجب، ١٤١٦هـ، ص١٤٢.

يعود مرة أخرى للطبيعة، فيقول[1]: «إن الطبيعة ليست طابعًا بل مطبعة، وليست نقاشًا بل نقشًا، وليست فاعلة بل قابلة، وليس مصدرًا بل قانونًا، إن الطبيعة شريعة إلهية»، الطبيعة شريعة إلهية، تدل على خالقها، هذا صنع الله فأروني ماذا صنع الذين كفروا؟

**٤- معرفة البشر:**

لكي يكون الإنسان أهلاً للشهادة على غيره، يجب أن يعرف ذلك (الغير)، معرفة دقيقة جيدة، وإلا فليس أهلاً للشهادة.. والملاحظ أن علوم الحياة تتقدم بخطى ثابتة، بل تقفز قفزات كبيرة، ربما لم يشهد العالم لها مثيلاً من قبل.

لكن علم الاجتماع وعلم النفس والتربية ما زالت تحبو، وخط سيرها متعرج، وجل أمورها ظني تخميني، وما تثبته مدرسة تنقضه أخرى وتهدمه.

ومن عجب أن الإنسان يسير المركبات، لمعرفة الكواكب القريبة والبعيدة، وهو لم يكشف نفسه.

نعم إن رجال التربية والاجتماع والنفس، ما زالوا يبذلون جهوداً لفهم الإنسان، ومحاولة معرفة كل ما لديه، ولكن يمكن القول: بأنهم ما زالوا في بداية الطريق.

---

(١) الفكر الأدبي والديني عند سعيد النورسي، ص٩٤.

«إن الإنسان ذلك المخلوق المكرم، المعتز بنفسه، يملك شخصية فذة، هي نسيج عجيب معقد، فيه موروثات نفسية وبدنية، وثقافة عامة يكسبها من بيئته ومحيطه، وعلم ومعرفة يتلقاها ويكتسبها، ظروف اجتماعية تحيط به، وتؤثر على سلوكه ونفسيته، إضافة إلى عوامل أخرى تعمل متشابكة متداخلة لتكون شخصية متميزة.

إن علوم الإنسان ما زال جلها «فرضيات»، لم تمحص ولم تصل حد النظريات، ولا الحقائق العلمية المقطوع بها، لا فرق في ذلك بين علم التربية وعلم النفس والاجتماع والفلسفة.

والإنسان يتساءل: لماذا يفلح الإنسان في كافة ميادين العلم والمعرفة والتقنية، ثم يفشل في فهم ذاته؟

وفي الإجابة يمكن القول: بأن كل علم ومعرفة له «مرجعية»، أي إطار توجيهي، أو لنقل قواعد أساسية تمنحه بعض الخطوط العريضة، أو الكليات التي مهمتها أن تعصم من يأخذ بها من الوقوع في التيه أو التخبط.

وقد كان كل ذلك متوفراً في «الوحي» وما جاء به الأنبياء، وآخرهم نبينا عليه السلام، فلما ابتعد الغرب عن الله وهديه، تخبط الإنسان وما زال يتخبط.

إن الإنسان جسم وعقل وروح وعواطف وأشواق، فإذا جرت العناية بالجسم فقط حصلنا على مصارع أو ملاكم أو عداء مثلاً، وإذا جرى اهتمامنا بالعقل فقط حصلنا على فلاسفة وعلماء، وقد تكون نهاية العالم على أيديهم، فيما يخترعون ويصنعون.

فإذا اهتممنا بالروح فقط فيمكن أن نحصل على جيش من الرهبان، وإذا اهتممنا بالعواطف والأشواق فقط فقد نحصل على شعراء أو فنانين.

فإذا اهتممنا بكل مكونات الإنسان، وبشكل متوازن، حصلنا على إنسان سليم متوازن، ومن ثم حصلنا على حضارة متوازنة تخلو من الانحراف.

إن الذي يصعب جحوده، هو ما قام به الغرب من جهود جادة لدراسة الإنسان وفهمه، ولكن العلة -في نظري- كانت متمثلة في فقدان المرجعية.. فالكل يبحث كما يشاء ليصل إلى ما يشاء، ثم ليناقض الكل الكل، ويهدم عالم الاجتماع ما يقوله عالم النفس وبالعكس.. أما المسلمون، ولديهم المرجعية، والمقدمات الأساسية لفهم الإنسان، فقد أهملوا ذلك، كما أهملوا الاشتغال بعمارة الأرض، وإقامة الحضارة، مع أن ذلك هو واجبهم، بعد عبادة الله تعالى.

وحتى لا نتهم بنكران الجميل، فإن الذين اشتغلوا بعلوم الإنسان وعلوم الحضارة كانوا في معظمهم ممن يقتنع بالمنهج الغربي، ويتولونه، ويثقون به تمام الثقة، وهم بذلك من الغرب وإليه، وإن كانوا منا دينًا ولغة ووطنية.

وبالمثل، فإن اليهودي والنصراني والمجوسي، الذي كان يكتب ويبحث -أيام كانت حضارتنا سائدة- كانوا أجزاء منها، لأنهم كانوا يخدمونها، وهي تخدمهم بما تقدم لهم من وسائل.. وكذلك -يمكنني الادعاء- بأن العربي والمسلم، الذي يشتغل باحثًا ومؤلفًا ومخترعًا في الغرب، هو جزء من حضار الغرب وليس جزءًا منا.

إنه يستعمل المنهج الغربي، والعلم والتقنية الغربية، وحتى اللغة، ويعمل -وهذا المهم- لحل المشكلات التي تواجه المجتمع الغربي، وإن درس مشكلة من مشاكلنا فيدرسها منهجًا واستثمارًا للغرب، لا أقول هذا بهدف اللوم، ولكن تقريرًا للواقع، كما يظهر لي على الأقل.

وختامًا، أدعو للتمسك بالمرجعية في فهم الإنسان، والتعامل معه، وأريد أن تكون دراستنا مؤطرة بذلك كي نفهم الإنسان

المسلم أولاً، ونستطيع النهوض به ثانيًا، فإذا تركنا هذه المرجعية فأي مرجعية نعتمد؟»[1].

إن فهم الناس عمومًا يتطلب معرفة بتاريخهم وجغرافيتهم وتركيبتهم السكانية، والمشاكل التي يعانون منها، وبدون ذلك فإن التعامل لن يكون ناجحًا.

في إفريقيا، حيث الفقر يضرب القارة السوداء ضربًا مخيفًا، تجعل الإفريقي يقدم أولاده إلى كوبا لتأخذهم وتعلمهم الماركسية وحرب العصابات، كما كان يقدم أولاده للدراسة في جامعة الكادحين في روسيا، دون معرفة بالنتائج ولا ما يدرس ولده.

في اليابان البلد الصناعي الفني، إذا قدمت كتابًا لشخص يحرص على دفع ثمنه، ولا يفهم سببًا لكون الكتاب بلا ثمن، ويرفض ذلك.

وإذا جَرّبْتَ مخاطبة الياباني باسم المشرق والعادات الشرقية، يقبل عليك، ولو طلبت منه أن يشهد أن لا إله إلا الله، لا مانع لديه، ولكن الإنسان الغربي يرفض ذلك بنوع من التعالي، ويقول: إنه نصراني.

---

(١) دراسة في المعرفة والثقافة، للكاتب، ص٥١.

## خامسًا: الإنسان بين التقدم والتخلف

اعتادت بعض الأنظمة أن تصنف العالم إلى متقدمين ومتخلفين، وطبعًا اختارت لنفسها التقدم، ودمغت غيرها بالتخلف، وكان أبطال هذا التصنيف من أصحاب النظم الشمولية، ومن يقلدها في المشرق العربي.. ومعلوم أن الأنظمة الشمولية هي الأسوأ في العالم، قديمًا وحديثًا، وقد قدرت المصادر الغربية وأيدتها المصادر الشيوعية أن «ستالين» تسبب في معاناة خمسين مليونًا من شعبه بين قتيل وسجين ومشرد ومهجر.. وهذا العدد الهائل لم يعرفه العالم خلال قرون، ومع ذلك صنفت الشيوعية كنظام تقدمي، وصنفت جميع الأديان بأنها مورفين الشعوب.

في حوار مع أستاذ غربي يعمل في جامعة خليجية، قيل له: لقد دخلنا الأندلس باثني عشر ألف مقاتل، وخرجنا بثلاثة ملايين، بعد أن أقمنا حضارة كانت ملء السمع والبصر، وبعد إقامة دامت سبعة قرون، ثم قمتم بحملة بربرية قتلتم الألوف ونصَّرتم بالقوة ألوفًا، وحين حاول السلطان العثماني سليم القانوني إجبار النصارى على الإسلام أو الرحيل، وقف الفقهاء في وجهه، ومنعوه من ذلك.

وحدث حين دخلتم القدس، وضعتم السيف في رقاب المسلمين حتى سالت طرقات القدس بالدماء، وحملتم من جماجم المسلمين

الألوف وأرسلتموها «هدية»، فلما استرجع صلاح الدين القدس سمح لكم بالخروج ومعكم الأموال، فكيف تفسر ذلك؟

الجواب: كل هذا صحيح لا جدال فيه، أما تفسيري فبسيط للغاية، فالإسلام يختلف عن النصرانية، وسلوك المسلمين يختلف بالتالي عن سلوك النصارى، ومن هنا جاء الاختلاف، ولا بد من عودة للوراء، فحين راحت النصرانية تنتشر، وقف الرومان منها موقفًا معاديًا.. مدة ثلاثة قرون وربع، كانت العلاقة بين الدولة الرومانية والنصرانية في غاية التوتر، فكثر القتل والمطاردة والسجن. وفي عام (٣٢٥م) حدث أن والدة الإمبراطور قسطنطين راحت تحثه ليتنصر وينصِّر الدولة، وقد باشر ذلك، فتوقفت عمليات القتل والمطاردة للنصارى، وشيئًا فشيئًا راحت الدولة تطلى بالنصرانية، لكن شيئًا لم يتغير من سياسة الدولة أو التشريع.

فقد جاء «الدين» متأخراً جداً، وكان يطلب الشرعية من الدولة، ولما حدث الصراع مع الكنيسة وانتصرت الدولة، طرحت العلمانية كحل وسط.. هذا من حيث التاريخ، أما التشريع فالإسلام عقيدة وشريعة، دين ودولة، ولم تكن النصرانية كذلك، فهي عقيدة وعبادة، بدون شريعة.

الأمر الآخر المهم جداً، أن الإسلام كدين، سابق ومتقدم على

الدولة، وقد أقام الدولة كما يريد، ولذا فالشرعية للدولة تطلب من الإسلام، وشرعية النصرانية تطلب من الدولة.

الحاكم فوق الكنيسة، والحاكم المسلم هو خليفة عن الرسول ﷺ ليس أكثر، ولذا فهو شرعي ما رضي عنه الإسلام، فإن ابتعد سقطت شرعيته. الدولة في الإسلام خادمة للدين وليس العكس.

تبقى قضية النزاع في المجتمعات النصرانية، فقد كان ضد الكنيسة وتجاوزات رجالها، أما النزاع في المجتمعات المسلمة، فضد الدولة وتجاوزاتها.. الدولة في الإسلام مدنية، محكومة بشريعة الإسلام، وفي النصرانية الأولى كانت كهنوتية، تستمد السلطة من الله، ولا يوجد من يحاسبها إلا الله.

ونظرًا لكل ما تقدم، وبعد إقامة في بعض الدول العربية قاربت عشر سنوات، خلصت إلى نتيجة: إن كثيراً من سلوكيات المسلم، لا يرضى عنها الإسلام أولاً، وأن أقصر طريق لتقدم المسلمين هو الأخذ بالإسلام عقيدة وشريعة، وبطريقة جادة بعيدة عن الشكليات والطقوس الخارجية.

أما عن سبب اختلاف النصارى والمسلمين قديمًا، فقد كان يعود لأن الإسلام عقيدة وشريعة، وكان الفرد المسلم حريصًا لدرجة عالية على الالتزام بأوامر الإسلام، أما النصراني فليس لديه شريعة،

وما عنده من أوامر تتعلق بالمحبة والتسامح فلا وجود لها في ميدان التطبيق، لذا كثرت الحروب بين النصارى، وكل فريق تمكن من آخر سامه سوء العذاب، وما زالت المطاحنات في إيرلندا بين الكاثوليك والبروتستانت تذكرنا بانعدام التسامح وفقدان المحبة، مع ذكرهما في كل صلاة تقريباً.

يدرس د. برهان غليون الفارق بين استناد الأخلاق للوحي وانفصالها عنه، فيقول[1]: «لقد أدى إسناد القيم الاجتماعية إلى الوحي –بعد أن كانت تستند إلى سلطة أرضية ملكية مقدسة– إلى تطور كبير لمفاهيم الإنسانية والعدالة والكرامة والمساواة والحرية، بينما أثار انفصالها عن الدين، في مرحلة لاحقة... مخاوف وشكوكًا متعددة، وقد أتاح هذا الانفصال أيضًا تمييزًا أفضل لحقل الأخلاق عن حقل القانون، وفي الحالتين أدى تبدل الإطار المرجعي إلى ثورة حقيقية جديدة في ميدان الأخلاق.

ففي الحالة الأولى، أصبحت قدسية النفس الإنسانية وكرامتها جزءاً من القدسية الإلهية، واستقلت عن أهواء السلطة لتصبح أساسًا للمساواة في الإنسانية، إذ أصبح جميع الناس أبناء الله،

(١) اغتيال العقل، ص٢٧٧.

وأصبحت عبودية الجميع له شرطًا لمساواتهم أمامه، وبذلك ضمنت الأخلاق لنفسها القوة والديمومة، وصار من الممكن للاجتماع البشري أن يتجاوز الممالك الصغيرة إلى الإمبراطوريات العالمية الكبرى التي طبعت تاريخ آسيا والشرق جميعًا بطابعها المنفتح والإنساني والتعددي، وشكلت من جميع الوجوه ثورة في مفهوم الإنسان ونظرته إلى نفسه، وإلى رسالته.

ومع ما أصاب هذه الأخلاق الدينية من تراجع وضعف مع تطور الحضارة ونفاد الجذوة الأولى الروحية، دعت الحاجة إلى إعادة بناء هذه القيم الإنسانية على أسس جديدة، فنشأت فلسفة أخلاقية حديثة، جعلت من العقل السند الأساس لها، باعتباره ملكة مشتركة للحكم عند جميع الناس، وخلف حدود الأديان والأجناس، وقد ترافقت هذه الثورة العقلية في مجال الأخلاق بنمو مفهوم الإنسان كعضو في مجتمع، وبنمو مفهوم الجماعة القائمة على تعاون الأعضاء، من أجل سعادتهم، وتدبير شؤونهم، ومضاعفة قدراتهم وحرياتهم، وهو مفهوم جديد بالمقارنة مع ما كان سائداً من تمحور كيان الجماعة حول زعيم ملهم أو مقدس، أو فكرة مقدسة رسالية.

وما حصل في هذه الثورة التي بدأت تختمر في المجتمعات الغربية، منذ نهاية القرون الوسطى، وبسبب ما شهدته هذه القرون

من عسف وتفريط بالقيم الدينية، لم يكن يعني إلغاء الأخلاق بقدر ما هو تحقيق الفصل بينها وبين الدين، أو بالأحرى تأسيسها على مصادر جديدة، وجعلها أخلاقًا مدنية.. ولذلك فإن الأخلاق العقلية التي أسست نفسها على فكرة الواجب، كما عبر عنها الفيلسوف الألماني «كنت» لم تلغ المبادئ القديمة، التي تحرم القتل والسرقة والكذب والغش... إلخ.

ولكنها أبرزت أن الحفاظ على هذه القيم والمبادئ لم يعد ممكنًا إلا إذا استند على اقتناع عقلي، ولم يكن هذا التطور في الواقع إلا أحد مظاهر حركة «العقلنة» العامة، التي شهدها المجتمع الغربي في القرون الماضية، كمحاولة لرأب الصدع، الذي خلقه تحلل الأيدلوجية الدينية وفسادها، وما كان لها مع ذلك أن تنشأ، لو لم تتحقق من قبل وحدة الإنسان وقدسيته في الأديان السماوية أو المقدسة».

**أزمة من أزماتنا:**

يتحدث د. غليون[1] عن أزمة يعيشها المجتمع العربي، تتمثل في عجز «التحديث» عن تقديم مشروع لأخلاق عقلية، على حين يقوم «التحديث» بتدمير الارتباط بين الأخلاق والدين، فلم نبق على الارتباط القديم، ولا أفلحنا بإنشاء ارتباط جديد. وهذا نموذج

(١) اغتيال العقل، ص٢٧٩.

محزن لهدم وفشل في البناء شمل أكثر من قضية.

يتحول غليون بعد ذلك لنجاح الإسلام في أن يوحد ما بين الدين -كمصدر لأخلاق فردية- وبين الشريعة كمصدر لنظام اجتماعي سياسي مدني: «... إن مضمون التجربة الإسلامية الأساسي هو نجاح الإسلام إلى وقت قريب في التوفيق بين مقتضيات الدين والدنيا، أي تطوير المسائل الأخلاقية والسياسية والقانونية، التي تواجه الجماعة المدنية، على قاعدة من السند الديني، ولم يضطر من أجل حفاظه على الدنيا، وتحقيق مكتسباته المدنية إلى التخلص من الدين، أو شن حرب شاملة عليه، كما حصل في المجتمع الأوروبي، ولهذا لم تظهر العلمانية كمطلب أساسي في أيدلوجية التقدم الحديث الأولى، بل بالعكس، فقد اعتبر المسلمون الأوائل أن تدعيم الشعور الديني وتنقيته، هو الوسيلة الأساسية لتدعيم الشعور الأخلاقي، وتقوية الشعور بالواجب، والالتزام بقضايا الجماعة والتضحية في سبيلها»(١).

واليوم تشتعل معركة حامية بين الإسلاميين والعلمانيين، وسيكون من نتائجها التي تشبه لعبة شد الحبل، عدم تطور المجتمع، والانشغال بالحرب الكلامية، ثم الوقوف عندها وعدم تجاوزها.

---

(١) اغتيال العقل، ص٢٨٠.

**١- الإيمان بالله تقدم:**

الدين عقيدة ينبثق عنها سلوك وتصور معرفي، وقد يكون ثمة تشريع أو لا يكون.. وبهذا المعنى، فكل عقيدة هي دين، فالشيوعي دينه الشيوعية، والعلماني دينه العلمانية، والوجودي دينه الوجودية، وهكذا... وهناك اليوم ملايين من المسلمين والنصارى مثلاً، لا يعرف من الدين سوى أنه مسلم أو نصراني، لأنه ولد كذلك، لكنه لم يدخل مسجداً أوكنيسة، ولا صلى ولا صام، ولا كف عن المحرمات، ولا فعل شيئًا من الواجبات.

ويوجد إلى جانبه التزام صارم بالماركسية أو العلمانية، حتى ليمتنع عن قراءة كتاب، لأنه مخالف لعقيدته.. وأستذكر هنا مقولة «سارتر»: بأن كل من يعادي الشيوعية فهو كلب، وأنه يعلن تمسكه بها. وأيام الثورة الثقافية في الصين، حفلت الصين بكل أنواع التعدي والإرهاب لكل من لا يؤمن بالشيوعية الماوية.

إن الأديان عمومًا والسماوية على وجه الخصوص لا تعترف بعبودية إلا لله تعالى، ومن ثم فهي تحرر الإنسان من عبودية الزعيم الأوحد، أو الحزب الطليعي الأوحد، وحتى الشهوات...

وحين طلب الإمبراطور الفارسي من المسلمين أن يقابله أحد، جاء ربعي بن عامر رضي الله عنه، فلما سأله: ما الذي أخرجكم من

بلادكم؟ قال ربعي: جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

ومن هنا وجدنا كافة الفراعنة قديمًا وحديثًا تحارب الدين، لأنه يمنع البشر أن يكونوا عبيدًا لأحد سوى الخالق.

وكافة الفضائل يأمر بها الدين، فهو يأمر بالعدل، وينهى عن الظلم، ويمنع كل أنواع العدوان، ويأمر بكل خير، وينهى عن كل شر، يحترم الإنسان، ويعتبره المستخلف في الأرض، ويكرمه بكل صور التكريم، حتى ليمنع كل ما يؤذيه من همز أو لمز أو لقب قبيح يكرهه.. يحافظ على حقوقه، ويمنع من الاعتداء عليها، في نفسه ومشاعره، وأمواله وأولاده وعرضه، وكل محبوب لديه.

الدين بشكل عام عدو للعنصرية، عدو للمستبدين المتفرعنين، عدو للظالمين، عدو للفاسدين المفسدين.. الحضارة تحتاج إلى دين يضبط حركة أهلها، ويكون هاديًا وموجهًا لها، حتى ليقول الفيلسوف «برناردشو»[1]: إنه يعرف جيدًا أن الحضارة بحاجة إلى دين، وأن حياتها أو موتها يتوقفان على ذلك.

أما الناقد البريطاني «كولن ولسن» فيقول[2]: «... الإنسان

---

(١) سقوط الحضارة، كولن ولسون، ترجمة أنيس زكي، ص٣٤١.

(٢) المرجع السابق، ص٣٩٥.

ليس كاملاً بدون دين، فإذا أرادت الحياة أن تتقدم خطوات أخرى أسمى من القرد، أو من الإنسان العادي، وحتى من الفنان، فلن يكون ذلك إلا عن طريق تطهير قوة الفهم، وهذا الشوق لتركيز أعظم من الخيال، يتمثل في الشهية الدينية... إن الدين مقياس البطولة ورمز حاجة الإنسان في الكفاح... وفشل الدين والحروب العالمية، أمران متلازمان حتماً».

جاء في كتاب القبائل[1]: «... لقد سيطرت النظرية المتطلعة إلى بشرية متحررة من الضوابط الدينية والقبلية، وعالم بلا قبائل عالمية، على خيال مفكرين من ماركس إلى أوغست كومتي، إلى إتش جي ويلز، وحسب مفهوم «العلمنة» الذي رافق تطوير العلوم الاجتماعية في القرن العشرين، فإن عملية التصنيع والتحديث ستتغلب في النهاية على الدين وعلى الهوية العرقية في الدول المتقدمة. وقد أصر عالم الاجتماع المعاصر «دانيال بل» على أن الانهيار المتواصل للهوية العرقية والدينية مسألة حتمية».

والسؤال: هل صدقت النبوءات؟

وختاماً، إن الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له، ليحرر الإنسان من عبادة الزعماء أو الأحزاب، أو الشهوات والغرائز، أو السقوط في

(١) القبائل، ترجمة مازن حماد، دار البشير، ص٢٥٨.

العنصرية واحتقار الآخرين، أو التطهير العرقي، أو سلب ونهب الشعوب وخيراتها، أو إشعال الحروب واستعباد الأمم.

تبقى قضية مهمة، إن الدين نصوص يفهمها الإنسان، وإن الإيمان بالله عقيدة معرفية، فالإنسان قد يفهم النص فهماً غير سليم، وقد يفسره ويسوقه لهدف لم يوضع له، وإن الإيمان بالله تعالى قد يبرد، فيصبح مجرد معرفة لا علاقة لها بالسلوك، ومن ثم فاللوم ينبغي أن يوجه للإنسان، وليس للدين والإيمان.

وكم من نصوص يلوكها الإنسان بلسانه، ويخرج عليها بسلوكه.. كم من نصراني يقرأ في الأناجيل: «من يلطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر».. ثم هو يمارس اللطم ليل نهار، ويشعل الحروب، وهو يتحدث عن «المحبة ودين المحبة».

وكم من مسلم يتحدث ليل نهار عن التوحيد الخالص، وهو يعتقد أن «البشر» هو الضار النافع فينافق له، وكم من مسلم يتحدث عن «الأخوة» وهو يترفع على كل الخلق، مسلمهم وكافرهم، ويحتقرهم، ويعاملهم أسوأ معاملة.

العيب ليس في الدين ولا في الإيمان بالله، ولكن العيب في الإنسان، الذي لا رابط بين عقيدته وسلوكه. وهذا الأمر ليس خاصاً بأهل الدين، فالكل اليوم سواء، يستوي في ذلك المؤمن والكافر.

ولنقرأ هذه الشهادة للدكتور برهان غليون[1]: «إن بين الرافعين لشعارات القومية، عتاة الانفصالية والقطرية، وبين المتحدثين بالعلمانية حماة العشائرية والطائفية»!

فالانفصال بين القول والعمل، بين المعتقد والسلوك، بات اليوم ظاهرة عامة كبيرة، بل طامة كبرى!

إن الإنسان وهو يجاهد في الحياة ويصارع، بحاجة إلى قوة كبيرة تمده بالعون، وتقول له: بأن تضحياته محفوظة ولن تضيع، ومقدرة ولن تبخس، وكل ذلك يجده عند الإيمان بالله ربًا.. فالإيمان بالله كان وما يزال يمثل قمة التقدم، بشرط أن يكون حارًا لا باردًا كليالي الشتاء: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (العنكبوت:٦٩).. هذا تعهد عظيم من الخالق بهداية المجاهدين، وهو مع المتقين يسدد خطاهم، ويقمع عدوه وعدوهم، وفي الآخرة يرفعهم إلى مصاف النبيين والشهداء، وحسن أولئك رفيقًا.

إن وصف الأديان بأنها رجعية جاء من قبل سدنة المادة، وعبيد الدنيا، وتجار بضاعة الشمولية الفاسدة، وتعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم، وتعس وخاب عبيد الدنيا والشهوات.

---

(١) اغتيال العقل، ص٧٤. وبالمناسبة فإن ساحتنا تغص بنماذج عجيبة، فهناك حكام عاشوا يلعنون الرجعية حتى ماتوا، ثم اكتشفنا أنهم يسألون امرأة تتعاطى السحر والشعوذة عن قضايانا الكبرى، ومنها دخول الحرب أو عدمها!

يقول سيد قطب[1]: «الإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله، التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب، التصديق المطمئن الثابت المستيقن، الذي لا يتزعزع، ولا يضطرب، ولا تهمس فيه الهواجس، ولا يتلجلج فيه القلب والشعور، والذي ينبثق عنه الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله، فالقلب متى تذوق حلاوة هذا الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه، لا بد مندفع لتحقيق حقيقته خارج القلب، في واقع الحياة في دنيا الناس، وهو يريد أن يوحد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الإيمان وما يحيط به في ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة...».

**٢- التحرر تقدم:**

الإنسان دون سائر الأحياء، له حاجات كثيرة بدنية وعقلية وقلبية، عاطفية وروحية، وكلما كبر كبرت حاجاته.. الطفل الصغير تهديه لعبة صغيرة فيفرح لها أعظم الفرح، وتعطيه الدرهم أو الريال، فكأنما ملك الدينا كلها، فإذا كبر كبرت حاجاته. فالشاب لا يقبل بالدرهم والدينار، لا يرضى إلا بالسيارة الفارهة، والملبس الجيد الجديد، والمدرسة الراقية، فإذا أنهى الدراسة تطلع للوظيفة الجيدة والراتب الكبير، وبعد مدة يطالب بالزواج والبيت الجيد وهكذا، كلما كبر كبرت حاجاته وتعاظمت حتى:

---

(١) في ظلال القرآن، ١/٢٦.

«**لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب، أحب أن له واديًا آخر، ولا يملأ فاه إلا التراب، والله يتوب على من تاب**»[1].. فإذا سار في هذا الاتجاه صار عبداً لحاجاته.

وساعد على هذا التوجه أن حضارة اليوم مادية حتى النخاع، وسويداء القلب، ويستوقفني في ذلك شعار «آدم سميث»[2]: «اجمعوا واجمعوا تلك هي الشريعة والأنبياء»، أي اجمعوا المال، فمتى حصل ذلك فهو كل شيء، هو الدين والدنيا معاً.

وقد علق الفيلسوف «نيتشه» على ما تقدم قائلاً[3]: «على قاعدة هذه الشريعة، يتحول النقد -المال- إلى إرادة من نوع آخر، إرادة رأس المال، التي لا تلغي الإنسان مباشرة، ولكنها تعطيه الشعور بالقوة الأكثر علواً، والوعي الأفضل».

ويعلق د. علي الشامي على ما تقدم قائلاً[4]: «لقد أعمى المال بصيرة الغرب، ولم تعد الحياة بالنسبة إليه أكثر من مجرد مسعى حثيث لإغراقها في مادية لا نهاية لها، ولم يعد «رأس المال» مجرد

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا.

(٢) نحن والصديق اللدود، للكاتب، الطبعة الأولى، ص٢٤.

(٣) نفسه.

(٤) المرجع السابق، ص٢٥.

حالة عابرة أو خاصة، فقد طبع كل شيء بطابعه، وصار هناك رأس مال للفرد والطبقة والدولة... وبات كل شيء رهين إرادته، وأصبحت هذه -وفق هذا التحليل- الرأسمالية نقطة ارتكاز في مسيرة الغرب نحو الخارج.. فهي لم تكتف بأن أفلتت النمو الداخلي، وأوصلته إلى أزمة عبرت عن نفسها بزيادة الإنتاج على الحاجات، وبعجز تطويع هذه الأخيرة لصالح السلعة، بل تعدت ذلك إلى نشر رغباتها في بلاد الآخرين، كحل مؤقت لأزمتها، وكإصرار على عدم تجاوز منطقها الاقتصادي نحو الأفضل، لها ولغيرها، لذا لم تتردد «إرادة رأس المال» في تبرير الاستعمار، ومكنت الإنسان الغربي، الذي سرعان ما وجد نفسه مندفعًا نحو الخارج، ليمارس هذا التنافس والقتل والنهب والسيطرة، أثناء بحثه عن أرباح اقتنع بأنها وسعادته شيء واحد، كما ترسخ في وعيه اعتبار «زيادة الأرباح» زيادة في السعادة والرفاهية».

إن الغرب جعل حضارته مادية أولاً وقبل كل شيء، وهو اليوم بفضل العولمة والشركات الكبرى متعددة الجنسية، يقتل المنافسة، ويحول العالم -على سعته- إلى سوبر ماركت غربي، تغمره الدول الصناعية بفائض صناعي وزراعي، تزيد في ثمن البضائع، على حين تهبط كافة السلع في دول الجنوب الفقيرة، ومن غير حرج ولا حياء يقف رئيس أغنى دولة ليصرح بأنه لن يسمح بارتفاع أثمان

البترول، وليطالب بخفضها، لأنه غني قوي، وليضمن الرفاه لشعبه، وليمت غيرهم جوعًا، ثم لا يجد من يقول له: لا!

إنها شريعة الغاب، للقوي كل شيء ولا شيء للضعيف! وقد أجاد «نيتشه» وصف هذ الحالة قائلاً[1]: «امتلاك، قمع، إخضاع كل ما هو غريب وضعيف، ظلم، قساوة، فرض لأشكاله الخاصة، دمج، وعلى الأقل: استغلال».

إن حضارة الغرب بتركيزها على الجانب المادي للحياة، وتهميشها واستبعادها لكل ما هو غير مادي، قد تخلت عن الحد الأدنى من الروحانية النصرانية، وتخلت عن كافة الحلول الإلهية، وأطلقت العنان لشهوات الإنسان كلها، وصاغت نظامًا أخلاقيًا يتمحور حول الفردية والأنانية والحيوانية، بحيث يغدو «الشوق إلى الرفاهية والدعة أقوى بكثير من السعي وراء تحقيق حاجات الروح، وبحيث يصبح الفرد الغربي من أجل ذلك أكثر استعدادًا لممارسة العنف ضد الذات، وضد الآخر ...»[2].

أليس من المطلوب سريعًا أن يتحرر الإنسان الغربي من كثير من مسلماته الحضارية أولاً، وأن يكف عن إرهاب الآخرين بحجة أنهم يعادون حضارة اليوم؟

---

(١) ما وراء الخير والشر، عن: نحن والصديق اللدود، للكاتب، ص٣٢.

(٢) نحن والصديق اللدود، ص٢١.

في الزيارة الأولى لوفد رئاسي أمريكي للصين، لفت انتباه الكل وفرة وكثرة استعمال الدراجة، فطرحوا أكثر من تفسير لذلك، ولكن الرئيس الصيني رفض كافة التفسيرات ليقول: اخترنا هذه الآلة البسيطة كي لا نحتاج سياراتكم، ولا قطع الغيار لها.

إن العالم بحاجة إلى ثورة ترده إلى البساطة، وتحجزه من هذا الهجوم على الترف، والغرق فيه، وإنعاش الروح قبل أن تختنق.

إن حضارة اليوم تدرب إنسانها على مزيد من الأنانية، والمزيد من التنافس، والغرق في الشهوات، ونتيجة كل هذا الغرق في حروب محلية وعالمية، لا تبقي ولا تذر، وقد تحرق كوكبنا الجميل، أو ترد البشرية إلى بدائية قاتلة.. إن حضارة اليوم التي رفعت شعار إسعاد الإنسان، تساهم اليوم بشقائه، وتسببت وما تزال بالكثير من أمراضه، وقد أفقدته الهدوء والسكينة، وحولته إلى آلة تدور؛ والأنكى من كل ذلك أنها تخونه وتستعبده باسم الرفاهية.

« هذه الحضارة التي أرادات لنفسها «إنسانوية» تؤدي إلى نظام يحتقر الإنسان ويخونه في نفس الوقت، لكي تدمره في آخر الأمر، إنها تحتقره لأنها تختزله في الوظائف المادية والكمية للمنتج البسيط والمستهلك، وتخونه لأنها جعلته يصدق أنه بفضل التقدم والتطور للعلم، وبنظام اجتماعي أفضل، ومتحرر من آخر الأحكام

السابقة، وأشكال القهر الموروثة عن الماضي، يستطيع أن يبلغ السعادة وينتصر على الألم، والتي هي غالبًا ملازمة للوضع البشري، وأخيراً تدمره بإفساده وتحطيمه وحرمانه حياته من المعنى والأمل، كما يقول باسكيه في كتابه (انتشار الإسلام)»[1].

ألا تؤمن أخي، بأن التحرر مما تقدم هو عين التقدم؟! ألا تؤمن بأن الهرولة وراء الأهداف المادية تستعبد الإنسان في النهاية، وتجعل منه دابة «متقدمة» همها العلف وقضاء الشهوة؟ ألا تعتقد بأن حضارة اليوم أسرفت في الماديات على حساب الروح والعواطف الخيرة؟ ألا تحتاج البشرية إلى ثورة تحررها قبل أن تدمر كل ما صنعت؟

### ٣- التقدم الصناعي:

عاش الإنسان ألوف السنين معتمداً على الزراعة، تمده وحيواناته ونباتاته بالغذاء ثم راحت بعض المجتمعات تتحول إلى الصناعة، وكان الهدف الأول التغلب على الصعوبات، وجعل الحياة أكثر يسراً.

كان الإنسان يعاني من الفيضانات وصعوبة الحركة، وعدم الحرية في نقل البضائع، فلما اخترع العجلة سهلت له حركته، فلما عرف البخار كان ثورة كبيرة، فلما عرف الكهرباء كانت ثورة أكبر وأعظم، فلما استعمل النفط كان ثورة جديدة، لذا نراه يعمل

---

(١) نحن والصديق اللدود، ص٣٥.

جهده لتيسير حياته على الأرض فيهتم أكبر اهتمام بالمواصلات، حتى قفز من الحيوانات إلى العربات ومنها إلى الآلات التي تسير بالبخار، ثم البترول، ثم الطاقة النووية، وهكذا.

ولا يجادل أحد أن حياة الإنسان اليوم أيسر، وأن حركته أسرع، وأن سيطرته على الكوارث الطبيعية تتحسن، ولكنه لم يقف عند هذا الحد، بل راح يصنع ما فيه الدمار الشامل للطبيعة، وما فيها، ولنتصور أن حربًا كونية حصلت، واستعمل الكل مخزونه الجهنمي من السلاح، فماذا سيكون مصير العالم؟ إن الإنسان يصنع ما يحتاج وما لا يحتاج، ما فيه خيره ورفاهه وما فيه قتله ودماره.

وإذا كانت الزراعة قد أنتجت -فيما أنتجت- الإقطاع ونظامه، فإن الصناعة قد أنتجت -فيما أنتجت- الرأسمالية التي راحت تبحث عن أسواق داخلية وخارجية، لتصريف منتجاتها.. من هنا جاء الاستعمار ليضمن الهيمنة والأسواق الواسعة.. لقد اعتمدت الصناعة وما زالت على العلم، الذي أنتج الآلة، وبفضلهما نشأ رأس المال الوافر، فإذا حاول الإنسان رسم العلاقة بين العلم ورأس المال والاستعمار، فلن يجدها مجرد تولد عفوي «إنها لم تكن تولدات منطقية بقدر ما كانت إرادة وضع غايات معينة للعلم، انحصرت بشكل أساسي في الاقتصاد والسيطرة، وبالتالي لا يجوز الاكتفاء باعتبار العلم الغربي «سلاحًا حضاريًا» رغم قفزاته النوعية،

بل ينبغي وضعه في سياق مسار عام، حدد للغرب رؤية ذاتية، للعالم والطبيعة والإنسان والإلهي، كما أمده بعناصر القوة التي تخدمه في تحقيق مصالحه الاستراتيجية.. وبذلك ينتج العلم الحديث نسقًا حضاريًا وتقنية للسيطرة، وكل ما عدا هذا ليس سوى اهتمامات هامشية.. بمعنى آخر، فقد أسس العلم انتماءً ماديًا للإنسان الغربي، عملت الرأسمالية على تحويله إلى ضرورة وجودية، وبنية حضارية، فألغت بعملها هذا بعدًا مهمًا من أبعاد الإنسان، وأعني بذلك انتماءه الروحي وعلاقته بالإلهي، التي تستطيع وحدها أن تعطي للعلم غاية أكثر سموًا وإنسانية.. وبينما يعطي العلم نزعة السيطرة أدوات هائلة جعلته يتحول بشكل مذهل إلى أهم وسيلة للسيطرة على الشعوب، وبغياب الحضور الإلهي عن مسار الحضارة التي قامت جوهريًا على العلم، لا يبقى شيء أمام العلم كي يمنعه من أن يتحول إلى علم تدمير رفيع المستوى...»[1].

وحتى لا يقوم متغرب فيتهمني بمعاداة الغرب وحضارته، والحقد على الغرب وتسلطه، مع إيماني الجازم بأن من استثير فلم يتحرك فهو مشكوك في آدميته أو لنقل في كرامته، فهذا «نيتشه» ابن الحضارة الغربية، ومع ذلك فهو يقول[2]: «إن ما أقصه عليكم

---

(١) نحن والصديق اللدود، ص١٧.

(٢) المرجع السابق، ص٣٨، عن نيتشه، إرادة القوة.

الآن هو تاريخ القرنين التاليين، فأنا أصف ما هو آتٍ وما لا يمكن إلا أن يأتي، وأعني به ظهور العدمية، ويمكن أن أقص هذا التاريخ منذ الآن، لأن الضرورة نفسها، تفرض ذلك، وهذا المستقبل يتحدث عن نفسه في مئات من الدلائل والعلامات، وهذا المصير يعلن عن نفسه في كل مكان، وكل الآذان قد أصبحت مرهفة السمع، لموسيقى المستقبل هذه، إن حضارتنا الأوروبية كلها تتحرك منذ وقت طويل في انتظار «معذب» ينمو من خمسية[١] إلى أخرى، ويؤدي إلى مأساة قلقة عنيفة لاهثة، إنها نهر يريد الوصول إلى منتهاه، إنها لم تعد تفكر إطلاقًا، بل إنها تخاف من التفكير».

صورة مظلمة لمستقبل الحضارة يرسمه «نيتشه»، ويشاركه آخرون مثل اشبنجلر وولسون، ويتحاشى توينبي أن يصرح به بوضوح.

المهم أن التقدم الصناعي كان ثورة كبرى، سهلت على الإنسان أمورًا لا حصر لها، لكن ككل الثورات لن تكون مأمونة العواقب أو النتائج، وتحتاج إلى ناقد شجاع يميز الخطأ من الصواب، وما هو في مصلحة الإنسانية حقًا، وما هو بعيد عن ذلك.

كذلك لا يكفي أن تخدم قلة بشرية على حساب كثرة ما زالت تكافح من أجل لقمة الطعام وعلبة الدواء، أليس من العيب أن يعيش ثلث العالم دون خط الفقر؟

---

(١) الخمسية: تدل على تضحية تكفيرية، كانت تقام في روما كل خمس سنوات.

أليس من العيب القاتل أن يستولي ٢٠٪ على ثروة العالم، ويديرونها كما يشاؤون ويتمتع الباقون بنعمة التفرج؟ أليس من العار أن تدفع دولة غنية مثل أمريكا مساعدات للفلاحين كي يكفوا عن زراعة المزيد من الحبوب، من أجل أن لا تهبط أسعارها؟

وأخيراً، أليس من العار أن تشعل الدول الصناعية حروباً محلية لتجربة أسلحتها، أو لتأديب الخارجين على بيت الطاعة؟

كتب محمد عابد الجابري[1]: أن تقريراً لمنظة العمل العربية قدر الأرباح المتوقعة من اتفاقية «الجات» بـ ٢٠٠ مليار دولار، نصيب العرب كلهم ١٪، أي مليارين فقط، بينما يبلغ نصيب المجموعة الأوروبية ٦ ,٣٢ مليار دولار، والولايات المتحدة وحدها ستحصل على ٣٦ ملياراً، وروسيا وتوابعها ٣١ ملياراً، وتحصل اليابان على ٢٧ ملياراً.. وما تبقى تتقاسمه دول العالم، أي ٤ ,٧٣ ملياراً.. فأي عدل هذا؟!

**٤- الالتزام الخلقي:**

أود ابتداءً طرح عدة أسئلة منها: هل يوجد إنسان عديم الأخلاق؟ هل هناك شعب قديماً أو حديثاً ليس له نظام خلقي؟ هل توجد أمة لا تلتزم نظاماً خلقياً؟ وأخيراً: هل توجد حضارة دون أي نظام خلقي؟ وما هي الأخلاق لغة واصطلاحاً؟

---

(١) قضايا في الفكر المعاصر، محمد عابد الجابري، ص٧٨.

**الأخلاق لغة**: الخُلْق: العادة والسجية والطبع والمروءة والدين[1].

**واصطلاحًا**: ملكة تصدر بها عن النفس الأفعال بسهولة ويسر، من غير تقدم فكر وروية وتكلف[2].. ويعرفه الفيروزأبادي[3] بأنه: بذل الجميل وكف القبيح، أو التخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل.. وعدَّ له أربعة أركان: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل.

وهنا الحديث عن السلوك، ويطلق عليه بعض العلماء «علم السلوك».. أما الأخلاق كعلم، فيعرف بأنه[4]: «علم يبحث في الأحكام العملية التي تعرف بها الفضائل لتقتنى، والرذائل لتجتنب، بهدف تزكية النفس».

وقد تحدث المصلح الديني «مارتن لوثر» عن أثر الأخلاق في الأمم فقال[5]: «ما سعادة الأمم بكثرة أموالها ولا بقوة استحكاماتها، ولا بجمال مبانيها، وإنما سعادتها بأبنائها الذين تثقفت عقولهم، وبرجالها الذين حسنت تربيتهم واستنارت بصائرهم، واستقامت أخلاقهم، في هؤلاء سعادتها الحقة، وهم قوتها وعظمتها الجوهرية».

---

(١) مختار الصحاح، لفظ «خلق».

(٢) تعريفات الجرجاني «خُلق».

(٣) بصائر ذوي التمييز، ٥٦٨/٢.

(٤) الأخلاق في الإسلام، د. عبد اللطيف العبد، الطبعة الأولى، ص١٢.

(٥) المرجع السابق، ص١٣.

## ماهية الأخلاق ومركزها:

هل الأخلاق هي مكارم القيم، وأصول السلوك الحسن، والبعد عن السلوك السيئ؟ أم الأخلاق هي مجموع القيم، والمبادئ الموجهة للسلوك، والمساعدة على تكوين اختيارات عامة، تؤدي إلى تكوين صورة عن المدنية؟

يفضل د. برهان غليون الطرح الثاني[1]، لأنه يضم كافة الخصال التي تشجع على احترامها حضارة ما، أو تستند إليها في إلهام الناس وحثهم على الممارسة.

أما مركز الأخلاق فيظهر من سلوك البشر، وتضارب المصالح، وتناقضها أحيانًا، مما لا يستطيع الفرد أو الأفراد تحقيقها معًا، هنا يقوم الإنسان بتنظيم سلوكه ليتوجه نحو الأهداف والغايات.

ومهمة الأخلاق تبني هذه الغايات أولاً، ثم تحديد القيم التي تساعد الفرد على القيام من نفسه بالاختيار بين المصالح والرغبات.

والنظام الأخلاقي من مهماته الأساسية تحديد الغايات الكبرى أولاً، والوسائل الموصلة لذلك.

ولولا ذلك لضاع الفرد، لأنه لا مقياس لديه، فيخضع للواقع، مهما كان، وقد يتخلى عن إرادته الشخصية، فيصير مجرد آلة بيد من هو أقوى منه، بل قد يفقد حريته كليًا أو جزئيًا بسبب ذلك.

---

(١) اغتيال العقل، ٢٦٧.

وهنا تبرز قاعدة معروفة: إن القيم الكبرى لا يضحى بها من أجل قيم أقل، وكذا يعتبر دفع المفسدة مقدمًا على جلب المصلحة، والمصلحة العامة تقدم على المصلحة الخاصة.

وهذا التحديد تقوم به الثقافة، فهي الحاكم.. فمتى كانت حية قوية فاعلة، سلم لها الكل، فإذا ضعف نظام القيم والأخلاق، وذبلت الثقافة، يصير قاعدة السلوك هو «تحقيق الرغبات الشخصية»، دون اعتبار للجماعة وسلامتها، بل دون مراعاة للمستقبل.

إن كل مجتمع مدني سليم يتطلع عادة للانخراط في مشروع جماعي، ويتطلب عادة نوعًا من التضحية ونكران الذات، وهنا نستذكر مقولة «مالك بن نبي»: إن قوس الحضارة يبدأ روحيًا قويًا، يعمل الأفراد بقوة وتضحية، يعقب ذلك مرحلة تتسم بالنشاط العقلي، تفلسف الأولى، وفي المرحلة الثالثة، تهيج الغرائز، فتنحل الحضارة وتسقط، لأن «الأنا» تكون هي الصوت العالي، بل الأعلى.

إن النظام الخلقي يقوم على وسيلة ضبط لسلوك الفرد داخليًا، كما يكون الخضوع للقيم إراديًا دون إكراه، وهكذا تساهم القيم الخلقية بقيام نوع من الاستقرار الاجتماعي، فإذا ضعف الالتزام الخلقي، بدأت القلاقل والمتاعب، وبدأ الشك بالقيم والثقافة المحلية كذلك.. عند ذلك يصبح تحقيق الذات وحيازة الاعتراف

الاجتماعي متعارضين مع احترام القواعد الأخلاقية السائرة، وعندها يكون تأثير القيم والضبط الاجتماعي قد ضعفا كثيراً، ومن ثم لم يعد ضبط سلوك الأفراد هيناً بل عسيراً.

وهذا ما نشكو منه، فالأخلاق والقيم الإسلامية، التي كانت تتوجه نحو الجنة والسعادة في الآخرة، لم تعد تصلح في نظر البعض، لتحقيق التقدم ومواكبة حضارة اليوم.. وهكذا شكل التحرر عندنا ثورة ضد القيم والنظام الأخلاقي، وضد التقاليد، كل التقاليد، وجرى تصوير الماضي بكل ما فيه وكأنه العقبة الكبرى ضد التقدم، وبالمثل وحّد هذا «البعض» بين «المستقبل والعلم»، واعتقد أن الماضي قيد بكل ما يحمل، وبذا وصم بالرجعية والظلامية، فصار التقدم والحرية ثورة ضد الأخلاق والقيم.

وقد كانت المحصلة هدمًا للقيم دون بناء جديد، ويذكرنا هذا بما حصل «للغراب» فقد أعجبته مشية الحمامة ورشاقتها، ولما رأى خفة حركة العصفور وقفزاته الجميلة، أراد تقليد الاثنين معًا، فجاء بأقبح مشية.

إن الحداثة اصطدمت بالقيم والأخلاق، وأرادت اقتلاعها من جذورها فلم تفلح، ولم تسلم لنا القيم، ولا استطاعت زرع قيم جديدة، فكانت مشية الغراب، لا جديد جيِّد ولا قديم قائم.

## الحداثة والعلم:

إن الحداثة ادعت أنها تبني نشاطها ووجودها على العلم، وكل ما لا يعترف به العلم فلا وجود له، وكل قضية يحلها العلم، فإن لم تحل فهي قضية «ميتافيزيقية» زائفة.. لقد صورت الحداثة وكأنها انعتاق من كل القيم والأخلاق، واستسلام للعلم ومعطياته.

واستشهد رجال الحداثة بالغرب، وحياة الإنسان هناك، فهو يحقق رغباته دون قيد، كما صورت الحرية الفردية وكأنها تعني -فيما تعنيه- سقوط الضوابط الاجتماعية. واندفع البعض للقول: بأن تقدم الغرب جاء ثمرة لتخليه عن القيم والنظم الخلقية، وهذا يشبه القول: بأن الغرب ألحد فتقدم، وما كان الإلحاد هو السبب، ولكن كانت هناك أسباب للتقدم، جرى الأخذ بها، وإلا لوجب أن يتقدم كل الملحدين في العالم، وأن يتأخر كل المتدينين.

## أين تقع قضية المرأة؟

ويمكن وضع قضية المرأة عندنا في هذا المربع، فالبعض يرى في تحررها الجنسي وتعريها، واختلاطها ودفعها الرجال بالمناكب، يرى في ذلك أعظم تحرر، بل رمزًا لتحدي القيم والأخلاق، والغرب اليوم يدفع بكل قوة في هذا الاتجاه المشبوه.

ومطلوب من كل عاشق للشهرة وثائر، أن يدعي الحرص على قضية المرأة، وأنه رمز من رموز الدفاع عنها.. ومن مستلزمات النجومية أن يهاجم الإسلام وعقائده، والمسلمين وأصوليتهم، وأن يهاجم المحرمات ويتجاوز المقدسات، وصار كل من يؤمن بالأخلاق والقيم متهمًا وعدوًا للتحضر، يُكفّر وطنيًا، ويُهمّش بحجة أن نياته غير سليمة، ويجري التحريض ضده على مختلف المستويات، وقد تكون كل جريمته أنه يؤمن بالقيم، ويتمسك بها، ويدعو لها.

وكما يستأسد البعض، كذلك يفعل بعض أصحاب السلطان، فهم يبيحون لأنفسهم كل ما ينكروه على غيرهم، ويستعملون القوة ويفرطون فيها -من غير حاجة أحيانًا- يخرقون القانون، على حين يطالبون الكل باحترامه!

إن الكثير من الدول تمارس العنف والضغط والإكراه بكل ما تمتلك من قوة، في ذات الوقت الذي تتهم جماعات بفعل ذلك «إن جوهر العدمية الأخلاقية -أي مضمونها- واحد في الدولة والمجتمع، إنه إلغاء لفكرة الواجب، وهو المبدأ الذي يتجاوز المصلحة المباشرة والفردية، ليعكس تسامي الإنسان، أو قدرته على الالتزام تجاه «الغير» والتضحية في سبيلهم، وما الشعور بالواجب إلا ثمرة للشعور بشرف الانتماء إلى الجماعة وبالرغبة في التماهي معها فإذا

عجز الإنسان عن الالتزام الجماعي أباح لنفسه كل ما استطاع أن يحرمه على غيره، ولا شك أن المجتمع القائم على المصالح والأنانية، لا يمكن أن يعرف الواجب والمسؤولية والتضحية»[1].

فإذا سقط الواجب والتضحية فلا بد أن يسود المجتمع شريعة الغاب، حيث الحق للقوة، ولا مكان للضعيف، وحيث لا يشعر المنتصر القوي بأي حرج من السيطرة على الثروة، وحرمان الآخرين.

**إذا فقدت القيم:**

هنا يجأر الناس بالشكوى من غياب الأخلاق وفقدان القيم، فينفجر النزاع ويتصاعد العنف فيتشقق المجتمع، وتفقد الحياة معناها وطعمها، وإذن «لا يمكن للمجتمع المدني أن يقوم بدون نظام أخلاقي لكن ما هو أصل ومصدر الفكرة المترسخة في الوعي العربي الحديث، حول نسخ العلم والحضارة العلمية عامة للأخلاق، كمنظومة اجتماعية؟

كيف جرت عقلنة هذا النسخ حتى أصبح انعدام الأخلاق يعني التقدم؟

في اعتقادنا أن مصدر هذه الفكرة، هي الفلسفة الوضعية والسوقية، التي ترى في العلم هدفًا لكل تقدم، وأنه النمط الأعلى، أوالمرحلة الأخيرة لتطور الوعي البشري، وأن هذا التطور قد قضى على كل أشكال الوعي الأخرى،

(١) اغتيال العقل، ص٢٧٣.

أو حل محلها، فأصبح في الوقت نفسه علمًا وأخلاقًا وأدبًا، فكل ما ليس بعلمي أو لا يمت إلى العلم بصلة، فهو من بقايا الماضي، ومن مخلفات الفكر اللاهوتي والميتافيزيقي والأيدلوجي والفلسفي، ولذا لا بد أن يزول لأنه رمز التخلف وعقبة أمام انتصار الإنسانية النهائي، فالعلم قد جب ما قبله، ولذا فإنه من المنطقي أن تصبح إزالة الأخلاق رمزًا للتقدم»[1].

إن الحكم على زوال الأخلاق بجرة قلم تشبه إلى حد موقف اليهود حين اكتشفت القارة الأمريكية، فقد سارعوا للقول: لا توجد قارة جديدة، لأن التوراة تنفي ذلك!

إن العقلية العربية «الحداثية» تبدو معجبة حتى العظم بهذا التوجه، ومسرورة له أعظم السرور.. «لقد جذبت هذه الفكرة بقوة الوعي العربي، لأنها كانت تقدم له -في الحقيقة- مبرراً وحجة عقلية مقبولة، للاندفاع في تدمير المدنية العربية، التي أصبحت غريبة على التاريخ الحديث، وذلك بهدف الاندماج في الحضارة، وليس هذا التدمير إلا استجابة تلقائية لنظام «الغلبة الصاعد»، وتأكيداً على توسع نفوذه»[2].

وأحسب أن تطور العلم والمعرفة، لا يلغي حاجة المجتمع لنظام القيم والأخلاق، بل يستدعيها ويطلبها، لتضبط حركته ولا تسمح بالتفكك والتشرذم.

---

(١) اغتيال العقل، ص٢٧٤.

(٢) المرجع السابق، ص٢٧٥.

## مسيرتنا الحضارية:

حين بدأنا مسيرتنا في التحضر، حتى صرنا قادة العالم، سارت خطانا في مسارين: الأول التمسك بما عندنا من قيم وأخلاق، والمسار الثاني كان الاغتراف من معارف الأمم السابقة ثم هضمه وإنتاج معارف جديدة، وقد بقينا أوفياء حتى ضربنا الاستعمار الحديث، فهز قناعاتنا هزاً عنيفاً، فتخلى بعض أبنائنا عن عقائدنا وقيمنا وهرول خلف العدو الزاحف، معتقداً أنه سيلحق به، إذا أخذ ما عنده! يذكرني ذلك بالسلطان العثماني الذي كان يسمع عن تقدم الغرب وتخلف بلاده، فأراد أن يذهب للغرب بنفسه ليكشف السبب، ذهب وعاد ليقول: وجدتها! إن الغرب يحلق لحاه ولا يلبس الطربوش ونحن لا نفعل ذلك، ونساؤهم تعيش مختلطة متكشفة، ونساؤنا ليس كذلك، والكل قد ابتعد عن الدين تقريباً، ونحن لسنا كذلك.. وأشهد أن جل أهل الحداثة لا يختلفون عن السلطان العثماني، وهذا الشاعر ضياء ألب التركي يصرخ بأعلى صوته: نريد أن نقتبس كل ما لدى الغرب، حتى الجراثيم التي في بطونهم.

## درس من إفريقيا:

لقد أتيحت لي فرصة التجول في غربي وشرقي وجنوبي إفريقية، فلم أر من الحضارة الغربية سوى الحانات تزدحم بشاربي الخمور، ومرضى الإيذر يملؤون المستشفيات، ورأيت شوارع بعض العواصم تجري فيها المياه القذرة، في سواقي غير مغطاة، ورأيت الشوارع الفرعية دون سفلتة ولا كهرباء.

وقد استعمرت فرنسا جزر القمر (١٦٠) سنة، فلما رحل الاستعمار لم يخلف مستشفى ولا مدرسة ولاجهازًا لتوليد الكهرباء، وهناك من يحن للاستعمار، ويعتبره من أنعم الله التي لا تجحد! إن الإنسان يمكن أن يمسخ بحيث يصبح عدو نفسه ودينه، ووطنه وأمته، لأن لوثة عقلية أصابته.

## إلى كافة المتغربة:

يموج العالم بملايين متغربة تعيش أجسامها في مكان، وتحوم أرواحها وتتجه أبصارها صوب الغرب، فإلى هؤلاء -وفيهم الكثير من أبنائنا- أسوق شهادة لرجل تعلم في الغرب واستقر هناك، ويعلم في إحدى الجامعات، فقد كتب يقول[1]: «إن ازدهار الوعي والإنتاج الديني والفلسفي والأدبي والفني، وقيم التواصل عمومًا، لم يكن في أية حقبة ماضية أعظم مما هو عليه اليوم في «المجتمع الغربي»، مجتمع الإبداع العلمي والروحي معًا، دون منازع، والنمو الأخلاقي يتماشى دائمًا مع النمو الحضاري، ولا يتنافى معه، لأن الحضارة تخلق فائضًا في الوعي، لا تعبر عنه القيم النفعية والتبادلية، ولا تستوعبه، وما الانحطاط والبربرية إلا تقلص النشاطات الفكرية المتعددة والمتنوعة... إن الأخلاق المدنية تنبع من فضيلة التضحية والمجانية والكرم، وإن أخلاق البربرية تقوم على المنفعة المباشرة، التي تستجيب إلى الصراع الذي لا يرحم، من أجل البقاء، وتستخدم الدين والعلم كوسيلة لهذا الصراع».

---

(١) اغتيال العقل، ص٢٧٦.

إن الفرق بين الإنسان والحيوان، وجود قيم وأخلاق لدى الإنسان وخلو الحيوان منها، فالأسد متى جاع يفترس أي حيوان يجده أمامه، فإذا تجرد الإنسان من القيم والأخلاق فسيكون حيوانًا يمشي على رجلين، يستعمل عقله وذكاءه للإيقاع بفريسته وأن يفعل بها ما يشاء، وكلما تقدم الإنسان صار «وحشًا كبيراً»، الحق عنده القوة، لذا من حقه أن يسلب الفقير الجائع لقمة طعامه.. لذلك فإن الأخلاق والقيم، ضرورية للمجتمع البشري، المتقدم منه والمتخلف، والسؤال: ما مصدر هذ القيم أولاً؟ وكيف يكتسبها المجتمع؟

**مصدرية القيم وكيف تكتسب:**

لا يوجد مجتمع بلا ثقافة، ولا مجتمع بدون قيم، فالقيم يتوارثها أفراد المجتمع، وهي نابعة من خبرة المجتمع الطويلة.. أصول القيم تعود للدين والعقيدة، وبعضها يعود للعادات، وبفضل التربية يتكون الشعور الأخلاقي.

لقد ساهمت الأديان بشكل عام، والسماوية بوجه خاص، في تطوير المفاهيم الكبرى، مثل الأخوة، والعدالة، والمساواة، وحقوق الإنسان، وحتى الحيوان، لكن المجتمعات الوضعية باشرت بوضع قيم جديدة، ومع مرور الزمن جرى التحرر من القيم القديمة، وهكذا تبدل الإطار المرجعي للأخلاق والقيم.

حين كانت الأديان هي المرجع صار جميع الناس لآدم، كلهم عباد الله، مؤمنهم وكافرهم، وصارت العبودية لله وحده، ليس لأحد سواه، وصار الناس سواسية كأسنان المشط، وأن الأفضل هو الأتقى، وهكذا تجاوز الإنسان حدود

الدولة، فقامت بفضل الأديان إمبراطوريات كبيرة، وقُبل التعدد العرقي والديني كحقيقة واقعة، وهكذا قامت ثورة في مفهوم الإنسان لنفسه ولغيره، وفي معنى الحياة والهدف منها، ورسم العلاقة الاجتماعية والإنسانية بعناية ووضوح.

ورغم ما أصاب القيم الأخلاقية من ضعف، بسبب ضعف الحماس الديني، فإن الحاجة ظلت تدعو لإعادة بناء هذه القيم، بناءً جديداً، فنشأت فلسفة أخلاقية حديثة، تحاول جعل العقل والعلم هما السند الأساسي للأخلاق، ونظراً للتفريط الذي حصل في الغرب بالنسبة للقيم الدينية وغيرها، فإن الغرب «لم يكن يعني إلغاء الأخلاق، بقدر ما هو تحقيق للفصل بينها وبين الدين، أو بالأحرى تأسيسها على مصادر جديدة، وجعلها أخلاقًا مدنية، ولذلك فإن الأخلاق العقلية التي أسست نفسها على فكرة «الواجب»، كما عبر عنها الفيلسوف الألماني «كانت» لم تلغ القيم القديمة، التي تحرم القتل والسرقة والكذب والغش.. إلخ، ولكنها أبرزت أن الحفاظ على هذه القيم والمبادئ لم يعد ممكنًا، إلا إذا استند على امتناع عقلي، ولم يكن هذا التصور في الواقع إلا أحد مظاهر حركة العقلنة العامة، التي شهدها «المجتمع الغربي» في القرون الماضية، كمحاولة لرأب الصدع الذي خلقه تحلل الأيدلوجية الدينية وفسادها، وما كان لها مع ذلك أن تنشأ، لو لم تتحقق من قبل وحدة الإنسان وقدسيته في الأديان السماوية أو المقدسة»[1].

---

(١) اغتيال العقل، ٢٧٨.

لقد عبر عن هذا التطور قيام مفهوم جديد لسيادة الفرد، وهو دليل على المساواة الأخلاقية، وهي انعكاس لسيادة المجتمع، وهكذا صارت ( حرية الفرد ) مصدراً لحرية الأمة وسيادتها، وبالمثل صارت سيادة الأمة وحريتها، هي الضمان لحرية الفرد وسيادته، ومع مرور الزمن راح يستقر في نفس الإنسان، الذي يعيش وفق هذه القيم، ويتأثر بها، أن التحرر من الدين وقيمه يؤدي لتحرر الإنسان.

ومن جهة أخرى، راح تعميق الحرية وتوسعها يصبح الأساس للشعور بالالتزام الخلقي، فإذا خمد هذا الشعور أو فسد فإن الشعور الأخلاقي، أو الالتزام الأخلاقي، سيفتح الباب للعودة القوية للأخلاق الدينية، باعتبارها السند والمرجع للمجتمع، وهذا ما نشاهده اليوم. فثمة عودة للدين والقيم الدينية، لدى مختلف المجتمعات والديانات، فثمة أصولية دينية هندوسية، وأخرى أكثر عنفًا وتطرفًا، يهودية، ونصرانية، ومسلمة.. والمجتمع الأمريكي مثلاً، يموج بعشرات الألوف لجماعات متطرفة، لها مليشيات تبلغ أكثر من ( ٣٦٠ ) ألفًا، كما ذكر الرئيس « كلنتن».. والانتحارات الجماعية خير شاهد ودليل.

**من أزمتنا: تدمير القديم.. ولا جديد:**

إذا كان المجتمع قادراً على هدم القديم، أي قديم، وبناء جديد مكانه، فتلك سنة الحياة، أن يتنحى القديم ليوسع للجديد، ولكن أن تهدم شيئًا ثم تعجز عن بناء جديد مكانه، فذلك فشل، بل نكبة.

يقول د. غليون[1]: «إن فهم الأزمة الأخلاقية التي يعيشها المجتمع العربي، والتي تتجسد بنظرنا في عجز التحديث عن تقديم إمكانية لنشوء «أخلاق عقلية»، في الوقت الذي يدمر فيه بانتظام السند الديني للأخلاق، يرجع ذلك إلى أسباب نابعة من طبيعة الحداثة نفسها، وإلى أسباب أخرى نابعة من الثقافة العربية ومن العلاقة الخاصة التي تربط بين الدين والمجتمع.

فبعكس ما حصل في الغرب، فقد نجح الإسلام منذ أيامه الأولى، في أن يوحد بين الدين كمصدر لأخلاق فردية خاصة، وبين الشريعة كمصدر لنظام اجتماعي سياسي مدني، ولعل ذلك راجع إلى أن الإسلام استطاع منذ البداية أن يوفق بين حاجات الحرية الشخصية، وحاجات بناء السلطة، ولم يضطر إلى إحداث القطيعة بينهما، وهكذا تطورت وبشكل مواز، ودون تناقض يذكر، النزعات الروحية والصوفية مع المنظومة الفقهية التي حاولت أن تستوعب التغييرات الاجتماعية وتفتح باب التأويل والتفسير، والاجتهاد العقلي.

وباختصار، لم يحصل في هذه التجربة ما يدعو للفصل العميق، بين الجهد العقلي الإنساني الروحي والوحي الإلهي، بل اعتبر هذا الجهد متمماً للآخر، وموافقاً له، ومن هنا استنتج المسلمون أن الإسلام «دين ودنيا».

والواقع أن الأديان لا تختلف فيما بينها حول اهتمامها بالروحي والمادي، بالفردي والعام معاً، ولكن مضمون التجربة الإسلامية الأساس، هو نجاح

---

(١) اغتيال العقل، ٢٧٩.

الإسلام، إلى وقت قريب، في التوفيق بين مقتضيات الدين والدنيا، أي في تطوير المسائل الأخلاقية والسياسية والقانونية التي تواجه الجماعة المدنية، على قاعدة من السند الديني، ولم يضطر من أجل حفاظه على الدنيا، وتحقيق مكتسباته المدنية، إلى التخلص من الدين، أو شن حرب شاملة عليه، كما حصل في المجتمع الأوروبي، ولهذا لم تظهر العلمانية كمطلب أساس في إيديولوجية التقدم الحديث الأولى . . . ».

وينبغي التذكر جيداً أن حداثتنا العقلية تتلمذت على الغرب، لكنها جاءت مسخاً، بل نسخة مزورة، فحداثة الغرب ثورة روحية عقلية، وحداثتنا ثورة على الإسلام تحديداً، وهروب من الأخلاقي إلى المحرم، ومصارعة «دونكتشيه» ينقصها المبرر . . خاض الغرب معركة شرسة ضد الكنيسة، أما نحن فليس لدينا كنيسة ولا معركة معها . . فما طبيعة معركتنا، وطبيعة معركة الغرب؟

## معركتنا ومعركة الغرب:

في الغرب تجسدت النصرانية -وهي عقيدة بلا شريعة- بالكنيسة، ومع تقدم الأيام أصيبت الكنيسة بالتيبس والجمود، فحين اخترع شخص ألماني مصباحاً يعمل بالكاز، حكمت الكنيسة بكفره، لأنه خالف إرادة الرب، بجعل الليل المظلم منوراً . . وحين قال العلماء بكروية الأرض ثارت الكنيسة وعرضتهم على محاكم التفتيش الدينية، التي راحت تحكم بقتلهم، وقدر عدد من عرض على هذه المحاكم السيئة أكثر من ( ٣٥٠ ) ألف إنسان بينهم الكثير

من مسلمي الأندلس، وهنا حصلت ثورة ضد الكنيسة انتهت بهزيمتها، وكان من أسوأ مفرزاتها إلحاد العلماء، ورفع شعار: «العالم لا يكون متديناً، والمتدين لا يكون عالمًا».

الإسلام ليس لديه كنيسة ولا رجال دين، ولا معصوم -كما هو حال البابا- والفقهاء رجال علم، قيمة ما يقولون يتأتى من قوة الدليل وصحته، وليس من مركز «المعصومية» التي لا تخطئ.. وحين أراد الخليفة الراشد عمر منع المغالاة في المهور، تصدت له امرأة -على رؤوس الأشهاد- وساقت الدليل الشرعي، فلم يزد الخليفة على أن قال: أخطأ عمر وأصابت امرأة.

وقال له صحابي يوماً وهو على المنبر: لو نعلم فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا.. فلم يزد أن قال: الحمد لله أن وُجد في أمة محمد ﷺ من يقوّم اعوجاج عمر.

أما معركتنا فكانت ضد الدولة، التي جاء بها الإسلام، ونظم حقوق وواجبات الحاكم والمحكوم.

إن المجتمع الشرقي عموماً، والإسلامي على وجه الخصوص، يتخذ من الدين والقيم الدينية ملاذه، بل مصدر قوته، وهو يصارع الدولة، التي تحلم بالتوسع دائماً، وبالغلبة أبداً، وأن يكون الولاء لها أولاً وآخراً.. إن معركتنا الأولى ضد الدولة التي لا تخضع لسوى قانون القوة، والتي تنتج القوة.

والمطلوب من الدين لجم سلطة القوة، وإخضاعها لمبادئ الشريعة وأحكامها، من هنا كان الإسلام وما زال قريباً من المجتمع، وكانت الكنيسة ضد المجتمع، وضد العلم تحديداً.

إن شرعية الدين في الغرب بيد الدولة، فهي التي تعترف بالكنيسة أو لا تعترف.. أما شرعية الدولة -عندنا- فهي بيد الإسلام، فالدولة التي لا يرضى عنها الإسلام لا شرعية لها.

**إلى أين المسير؟**

تحديث الدولة هدف الإنسان، وكذا النظام السياسي، في عالمنا العربي والإسلامي، وكان الأمل أن يتم ذلك دون خسائر ولكن الذي حدث أننا فرطنا بالقيم الإسلامية، والتحديث لم يأت كما يراد، فلم تصبح الدولة عقلانية، ولا تقلص استبدادها، بل صارت غولاً يخيف الناس.. لقد «ظهرت العقلنة العربية كوسيلة لاستبعاد الجماعة عن السلطة، وأداة لتحديث وتقنية الدولة الاستبدادية، وقتل الروح الجماعية، والتفريط بالقيم الروحية والإنسانية.

وبقدر ما أصبحت الدولة عقلانية، وتمكنت من فرض التبعية المطلقة على الجماعة، جعلت من سيادتها محصلة لفقدان جميع الأفراد سيادتهم وحريتهم، لذا بدل أن يحصل هنا تقدم باتجاه استقلال الأخلاق عن الدين، واستنادها للعقل، حصل في الواقع انتكاس، من نموذج الأخلاق الدينية إلى نموذج الأخلاق البدائية التي تتجسد من خلال التماهي مع زعيم قائد ملهم، يشكل الولاء له، والإيمان به، مصدر كل سيادة، ومنبع الحق والأخلاق، كما أصبح صنع القائد المقدس، الذي يملأ على الناس حياتهم، وينيرها بكل الشموس، هو محور الفعل الأخلاقي وجوهره.

باختصار لم تعن العقلنة عندنا تجديد ميتافيزيقيا الأخلاق وإحياءها، بقدر ما عنت التضحية بها لصالح ما اتفق على أنه التقدم العلمي، وما ظهر فيما بعد على أنه السلطة الجديدة.. ولعل هذا ما يفسر المصير المأساوي الذي لاقته فكرة العلمانية ذاتها، فبعد أن كانت تقضي بالفصل بين الدولة والكنيسة، وتحرير السلطة من العقيدة التي تحرمها من ممارسة العدالة والمساواة، تجاه جميع أعضاء الجماعة، أصبحت العلمانية تعني تمسك الدولة والسلطة بدين أو بمذهب سياسي، وحرمان المجتمع من أي دين...»[1].

أراد البعض عندنا أن يهرب من الدين وقيمه ومحرماته، فسقط في أحضان الظلم والطغيان.

## الإسلام.. حبل النجاة أم سبب التخلف؟

في مجلس جمع بعض المثقفين وأساتذة في إحدى الجامعات العربية، وبعد أن شرّق الحديث وغرّب، جاءوا على ذكر نظام عربي، فقال بعضهم: إنه إسلامي أكثر من اللازم، ومتزمت أكثر من المعقول، وجاء الرد، بل هو إسلامي «قشراً» وغير مقبول فعلاً.. هذه المفارقة في وصف نظام معين، بأنه إسلامي أكثر من اللازم، وأنه في نظر آخرين ليس إسلاميًا بما فيه الكفاية، يذكرني بانقسام بعض مجتمعاتنا انقسامًا عموديًا حادًا. منذ سنوات قامت شركة خليجية بشراء قطعة أرض كبيرة لبناء مساكن لأساتذة جامعيين بناء على طلب

---

(١) اغتيال العقل، ٢٨١.

من الأساتذة، وبعد الشراء وتقسيم الأرض، رفض أساتذة إحدى الجامعات أن يسكنوا قريبًا من الأساتذة الآخرين، وانتهى المشروع كليًا إلى الفشل، وعرضت الأرض للبيع.

هذه صورة أخرى لانقسام داخل مجتمعنا، لا يبشر بخير، ولن يتحرك مجتمعنا، والبعض ضد الآخر بهذه الصورة.. «ولعل هذا ما يفسر الموقف الانفعالي للعرب مع الإسلام، وانقسامهم بين التمسك بكل ما يمت إليه بصلة حتى لو لم يكن من صلب الدين، وبين الوقوف ضد كل ما يشير إليه دون تمييز! والأصل في ذلك أنه ما زال المصدر الأول للأخلاق، في الوقت الذي تتحول فيه الأخلاق إلى الملجأ الأخير لإنسانية عربية، خانها التاريخ، وانحدرت بها المؤسسات القانونية والسياسية والاقتصادية.. فهو بالنسبة للبعض «خشبة الخلاص الوحيدة»، وهو بالنسبة للبعض الآخر العائق الرئيس، أمام الانعتاق والتحرر من كل قيد، ومن كل التزام جماعي.

ويعكس الموقف الانفعالي أزمة التربية العربية ومأزقها، ويطرح سؤالاً أساسًا وخطيرًا: من أين يأتي الإطار المرجعي لمنظومة القيم التي تنظم سلوك الناس، وتحدد ولاءهم في مجتمع معين؟ وهل من الممكن اختيار هذا المرجع، أو هل هو مسألة اختيار، أم هو ثمرة لتطور موضوعي وتاريخي للثقافة القومية ذاتها، وأحد إبداعاتها؟ هل يكفي مثلاً أن ينادي مسؤول أو مثقف بأهمية هذه القيمة الفكرية والاجتماعية أو تلك، حتى تصبح مقدسة؟ وهل يمكن إسناد المنظومة الأخلاقية إلى إرادة حاكم أو مشرع، أو إلى الإرادة بشكل عام؟

إن ما يحصل في المجتمعات النامية من تبديد في الأرواح والثروات، واختلاس وتلاعب بالمصالح العامة، وبحصر الجماعات وحياتها، يبين إلى أي حد يؤدي انحلال السند الروحي للأخلاق إلى فقدان الرادع الذاتي »[1].

### الولاء والشعور الأخلاقي:

ومن المعروف أن الشعور الأخلاقي مثل الولاء، لا يمنح عن طريق الأوامر، ولا عن طريق استعمال القوة، وإنما هو يتطور مع الزمن، ويعكس علاقات الأخوة والتضامن والتوادد، والدين هنا يعتبر أكبر عامل ومنبع للأخلاق، لكن ذلك ليس تلقائيًا، إذ لا بد من وجود عقيدة جامعة تجمع الكل، وإطار للتعاون والتضامن، فإذا صار الدين عقيدة باردة وصارت الأخوة مجرد كلام تلوكه الألسن، كما يحدث اليوم ببعض البلاد العربية والإسلامية، وصار التضامن مجرد عواطف، فإن الشعور الأخلاقي يمكن أن ينحدر وينام.

من الأمور المنغرسة في فطرة الإنسان، ميله لأخيه الإنسان، وحبه للتعرف عليه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ (الحجرات:١٣).. وإذا خلق الله الشعوب مختلفة لتتعارف، فإن النظم الاستبدادية جعلتها تتعارك وتتصارع، وبعض الدول تعجز عن إطعام شعبها وتطلب المعونات، وفي ذات الوقت تنفق الملايين على حروب طاحنة لا تبقي ولا تذر، متوهمة أن ذلك يحقق المجد الشخصي لها.

---

(١) اغتيال العقل، ٢٨٢.

إن النظام الاجتماعي قد يعمل على تنمية العلاقات والشعور الأخلاقي، لكنه قد يفعل العكس، فيغتال ذلك، حين يكون النفخ في فئة أو جماعة، فتشعر أنها شعب الله المختار، وأن من سواها ليسوا أكثر من بهائم أو أنجاس، إن هذا النفخ وهو اليوم قائم بأكثر من بلد وشعب يقتل الشعور الأخلاقي، ويغطي على التضامن والمحبة، ويؤدي إلى تقسيم المجتمع إلى طبقات متصارعة، فتغتال المواطنة، كما يقتل الولاء.. إن منابع ومصادر الأخلاق في الأمم يستحيل تغييرها متى نشاء، وكما نشاء، لأنه يجب أن يتبدل بنياننا الثقافي، وهذا صعب للغاية.. الإنسان يبدل ملابسه بسهولة، ويغير بيته وأثاثه، وحتى جنسيته، لكنه لا يستطيع أن يغير أخلاقه بنفس السهولة، وعلى تجار الحداثة أن يعلموا ذلك جيداً، ليكفوا عن وهم قلع الأمة من جذورها، ونقلها إلى ثقافة أخرى، وخلق جديد، وقيم جديدة.. إن قلع الجبال أيسر من تحويل ولاء الإنسان، وأيسر من تغيير قناعاته الأخلاقية، والتنازل عن قيمه الأساسة.

## شبابنا والفراغ الروحي:

في أحاديثي مع طلبتي في الجامعة، أشكو من قلة الاهتمام بالحضور، ومن قلة الاهتمام بالدراسة، حتى المذكرات والكتب أراها متروكة في الأرض، فلماذا كل ذلك؟

يرد الطلبة: نحن ندرس ونسهر الليالي في الثانوية كي نحصل على درجات تؤهلنا لدخول الجامعات، فإذا نجحنا وجدنا الألوف تتزاحم على بضع

مئات من المقاعد، ومَن قُبل فهو يعلم سلفًا أن لا توظيف بعد التخرج، ومن كان أهله أغنياء، تزوج وشق طريقه في الحياة، ومن كان فقيراً فعليه الانتظار.

الخلاصة، نخشى أن يصبح الشباب بدون أمل ولا عمل.. فمن أين تتوفر لديه الرغبة في الحضور والمذاكرة؟

تعرفت على طالب في بلد عربي، فأخبرني أنه نجح في امتحان الثانوية العامة، لكن معدله كان ضعيفًا، فراح يعيد الامتحان على مدى أربع سنوات متوالية، ليحصل على مقعد في الجامعة، في الوقت الذي تخرج فيه زملاؤه.

هذه نماذج لمعاناة شبابنا، وكل ذلك يصيبهم بنوع من الإحباط واللامبالاة وفقدان السند الأخلاقي والفراغ الروحي، ويكوّن صورة مظلمة للمستقبل «ولعل نظرة سريعة على حياة الأجيال الجديدة، في بلاد العالم الثالث، تلك الأجيال التي فقدت سندها الأخلاقي، كافية لرؤية الفراغ الروحي، الذي تعيش فيه، وانعدام الأفق والأمل والإيمان بشيء، سوى المشاركة الوهمية والسرابية بحضارة استهلاكية ليس لهم منها سوى القشور، ولا يخفف من شعورهم بالحرمان إلا قناعتهم بالدونية والسقوط، وغربتهم في عالم لا يعرفونه ولا سلطة لهم عليه.. وهكذا تظهر الحداثة كانخلاع للإنسان من كل إطار اجتماعي ومعنوي، وإنتاج موسع لحشود من المشردين الذين ينتظرون على أبواب المجتمع الاستهلاكي، في حضارة الصوت والصورة، المصبوغتين بالعنف والدم.. ضد هذا الانخلاع والتشريد، وضد هذا المصير

الحزين، تستجمع بعض الجماعات قواها المعنوية ومنابع قيمها التاريخية، في حركة بائسة لحفظ مدنيتها المهددة...»[1].

إن هذا الشباب سيظل يبحث لأزمته عن مخرج، إما بالهرب والهرولة نحو الغرب ليعمل خادماً في مطعم، وليتعلم غسل الصحون، وهي مهنة حضارية عظيمة! أو ينعطف نحو الدين وقيمه، وليتحول إلى مجاهد مستعد للقتال ولو بأظافره، أو يشتغل في المخدرات، مروجاً أو متعاطياً، أو كليهما، أو يكوّن عصابات لسرقة السيارات أو البيوت.. كل هذا وارد وعلى من يعنيهم الأمر أن لا يعولوا على «العصا» فقط.. فالشاب المحبط الذي لا يجد له مقعداً للدراسة، والمتخرج الذي لا يجد فرصة كسب وعمل، تمكنه من الزواج، لا تخيفه العصا، وربما صارت عقيدته: من يغلق الأبواب بوجهي فهو عدوي، وعليّ أن أحطمه.. وويل لمن يقف في وجه شاب ثائر يعيش بلا حلم ولا أمل ولا عمل.

قبل قرون صرخ ابن حزم، فقيه الأندلس الكبير: عجبت لمن لا يجد طعام يومه كيف لايخرج حاملاً سيفه! وأقول: عجبت لمن لا يجد مقعداً دراسياً، ولا وظيفة، ولا فرصة عمل، ألا يصير ثورياً ويقاتل حتى ظله!

**مفارقة:**

كان أمل أهل الحداثة إقصاء الدين والثقافة الدينية والأخلاق المستندة للدين، وتحديث البلاد والعباد، ولكنهم وبعد عشرات السنين، ما زادوا أن صاروا

---

(١) اغتيال العقل، ٢٨٤.

سدنة للاستبداد السياسي والعمالة الثقافية، وأعداء ألداء لكل تغيير لأنهم الكاسب الأكبر من الأوضاع المعوجة، والحليف لأي سلطة، مهما كانت، ومن أي نوع كانت.

على حين صارت «الثقافة التقليدية» هي التربة الخصبة لازدهار القيم الحديثة والدفاع عنها، قيم الحرية والعزة الوطنية، والاستقلال السياسي، والكرامة الإنسانية والعدل الشامل.. فالدين والثقافة التقليدية هي التي تغذي المقاومة ضد السيطرة الأجنبية، والتغريب، ونهب الثروات، وهي التي دعمت وما تزال الإرادة الجماعية، والتصدي لكل اعوجاج، وهي التي تحفظ للجماعة الحد الأدنى من التوازن، وتمنح الأمل، وتخفف ضغوط الحياة المادية، وتصد أو تمنع تحطيم البنية الاجتماعية، وهي التي صارت تمتص الكثير من مفرزات الفشل في شتى الميادين.

إنها اليوم تحيي التكافل وتحرم التبذير، وتدعو للعيش وفق نمط استهلاكي غير مكلف، إنها ما زالت تشكل الرأسمال الاجتماعي، وربما المعنوي الذي تعيش منه وعليه الجماعة القومية، وتقي نفسها به من السقوط في الوحشية البربرية[1].

لقد كانت الحداثة حتى الأمس القريب تصف الدين والأخلاق الدينية بأنهما مسكنان مخدران، ثم فجأة راحت تصفهما بالثورة والتحريض.

---

(١) اغتيال العقل، ٢٨٦.

بينما صار الحداثي المنتفع الأول من الفساد، مدافعًا عن أي نظام ولو كان نقيض طروحاته وما يدعيه من قيم.. لقد تحول إلى مسوق ومروج للسلطان، مهما كان ومهما كانت طبيعته، إنه اليوم يشعر بأكبر قدر من الحسد والغيرة، ولذا صار همه الأول أن يستعدي السلطان ضد أخيه، بل يستعدي الأجنبي ضد بلده ومواطنيه. إنها مفارقة كبيرة، وما أكثر المفارقات هذه الأيام؟!

**صورة مجتمع:**

سأرسم صورة لمجتمع كفر بالأخلاق الدينية، فالناس فيه، أو لنقل جلهم، يتعاطى الكذب، ويمارس الغش، ويتجسس على أخيه ووطنه، يسرق الأموال والأعراض، يعتبر الرشوة من الحقوق المكتسبة، والسلب والنهب شجاعة، يهجم على المحرمات دون خوف ولا حياء، يرفع شعار ( الحلال ما حل باليد )، يجوّد ويحسّن في مظهره، بينما باطنه خراب في خراب، يقتل بالأجرة، ويشهد كذبًا وزورًا، ينافق للقوي، ويستأسد على الضعيف، ثقافته كلمات يلوكها، وعلمه يدور كله حول المنفعة، وأخلاقه كلها تدور حول خدمة نفسه، إنه بذلك يتحول إلى مجتمع «خنازيري» متقدم جداً جداً!

وأختم هذه الصورة بقول الشاعر:

لولا المشقة ساد الناس كلهمو    الجود يفقر والإقدام قتال

فإذا كانت الأخلاق تقوم على المنفعة، فإن «الأنا» ستكون كل شيء،

وستصير الحياة أكثر صعوبة ومشقة، ويشتد الصراع ويعظم، فلا يكون للفقير ولا للضعيف مكان.

إن الأديان تعلم الناس الإحسان، كما تعلمهم العطف، حتى على الحيوان، وكلما ضعف الدين قوي الإنسان واستأسد، وحل السلطان محل الله تعالى، وأراد من الناس السمع والطاعة وكفى.

فاللهم سدد خطانا، وألهمنا الصبر والصواب، ومحبة الخلق، وعشق الحق، وكره الظلم والظالمين، والاستبداد والمستبدين، والنفاق والمنافقين، والكذب والكذابين، والزور والمزورين.. اللهم اجعلنا هداة مهتدين، ولا تجعلنا ضالين مضلين، يا رب العالمين..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
مركز البحوث والدراسات

# جائزة مكتبة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني للعلوم الشرعية والفكر الإسلامي

## تدخل عامها الرابع

إسهاماً في تشجيع البحث العلمي، والسعي إلى تكوين جيل من العلماء في ميادين العلوم الشرعية المتعددة، تنظم مكتبة الشيخ علي ابن عبد الله آل ثاني رحمه الله الوقفية، مسابقة بحثية في مجال العلوم الشرعية والفكر الإسلامي، جائزتها (٧٥) ألف ريال قطري.

**شروط الجائزة :**

١- يُشترط في البحوث المقدمة، أن تكون قد أُعدّت خصيصاً للجائزة، وألا تكون جزءاً من عمل منشور، أو إنتاج علمي حصل به صاحبه على درجة علمية جامعية، وأن تتوفر في هذه البحوث خصائص البحث العلمي، من حيث المنهج والإحاطة والتوثيق، وسلامة الأسلوب والجدة والابتكار.

٢- يُقدم البحث باللغة العربية من ثلاث نسخ، مكتوباً على الآلة الكاتبة، ويفضل أن يكون مكتوبًا على الحاسوب، على ألا يقل عدد صفحاته عن مائتين وخمسين صفحة، ولا يزيد على ثلاثمائة صفحة «A4 × ٢٢ سطرًا ×١٢ كلمة».

٣- يقدم الباحث ملخصًا لبحثه في حدود خمس صفحات باللغة العربية، والإنجليزية إن أمكن.

## ثمن النسخة

| | | |
|---|---|---|
| الأردن | (٥٠٠) | فلس |
| الإمارات | ( ٥ ) | دراهم |
| البحرين | (٥٠٠) | فلس |
| تونس | | دينار واحد |
| السعودية | ( ٥ ) | ريالات |
| السودان | ( ٤٠ ) | دينارًا |
| عُمان | (٥٠٠) | بيسة |
| قطر | ( ٥ ) | ريالات |
| الكويت | (٥٠٠) | فلس |
| مصر | ( ٣ ) | جنيهات |
| المغرب | ( ١٠ ) | دراهم |
| اليمن | ( ٤٠ ) | ريالاً |

* الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا، دولار أمريكي ونصف، أو ما يعادله.


مركز البحوث والدراسات

هاتف: ٤٤٤٧٣٠٠

فاكس: ٤٤٤٧٠٢٢

برقياً: الأمة ـ الدوحة

ص . ب : ٨٩٣ ـ الدوحة ـ قطر

موقعنا على الإنترنت:

www.islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E-Mail:

M_Dirasat@Islam.gov.qa



مطابع الراية – قطر

# وكـــــلاء التـــوزيـــع

| البلـد | اســـم الوكيـــل | رقم الهاتف | عنــوانـــه |
|---|---|---|---|
| قطـــر | □ دار الـثـقـــافـــة<br>□ دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب» | ٤٤١٤١٨٢<br>٤٤١٣٤٧١ | ص.ب: ٨١٥٠ ـ الدوحة<br>فاكس: ٤٤٣٦٨٠٠ ـ بجوار سوق الجبر |
| السعودية | □ مـكتبــة الـــوراق | ٤٥٠٩٠٥٧-٤٥٥١١٤٢ | ص.ب: ٩ الرياض ١١٤١١<br>فاكس: ٤٥٣٠٠٧١ |
| الإمـارات | □ مكتبــة علــوم القـــرآن | ٣٧٤٤٤٥ | ص.ب: ٢١٦٣٣ ـ الشارقة<br>فاكس: ٣٦١١١٠ ـ الإمارات |
| البحـرين | □ مـكـتـبـــة الآداب | ٢٣١٠٦٢<br>٢١٠٧٦٨ (المنامة)<br>٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى) | ص.ب: ٢٨٧ ـ البحرين<br>فاكس: ٢١٠٧٦٦ |
| الكـويت | □ مكتـبة دار المـنار الإسـلاميـة | ٢٦١٥٠٤٥ | ص.ب: ٤٣٠٩٩ ـ حولي ـ شارع المثنى<br>رمز بريدي: ٢٣٠٤٥<br>فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤ |
| سلطنة عمان | □ مكتبــة عـلـــوم القــــرآن | | ص.ب: ١٩٦٠ روي ١١٢<br>فاكس: ٧٨٣٥٦٨ |
| الأردن | □ مؤسسة الفريد للنـشر والـتوزيع | ٥٦٠١٠٩٩ | ص.ب: ٩٦٠٦٥٤ ـ عمّان<br>فاكس: ٥٦٩٨٩٢٩ |
| اليمـــن | □ مكتبــة الجيــل الجـديـــد | ٧٨٠٤٠-٧١٣٦٣<br>٢٧٠٣٨-٧٥٨١١ | ص.ب: ٥٤٤ ـ صنعاء |
| السـودان | □ دار التـــــوزيـــــع | ٧٧٩٤٦٠-٧٧٥٥٨٥ | ص.ب: ٣٥٨ ـ الخرطوم |
| مصـــر | □ مؤســسة تــوزيـع الأخـبـار | ٧٥٨٨٨٨-٧٤٨٨٤٤<br>٧٤٨٨٨٨ | ص.ب: ٧ ـ القاهرة<br>فاكس: ٥٧٤٨٧٠١ |
| المغـــرب | □ الشركة العربية الأفريقية للتوزيع «سيبرس» | ٢٤٩٢٠٠ | ص.ب: 13008 - 70 زنقة سجلماسة<br>الدار البيضاء 5 ـ فاكس: ٢٤٩٢١٤ |
| إنكلتــرا | □ دار الرعــايـــة الإسـلاميـــة | (01) 272-5170/<br>263 - 3071 | **Muslim Welfare House,**<br>**233. Seven Sisters Road,**<br>**London N4 2DA.**<br>**Fax : (071) 281 2687**<br>**Registered Charity No: 271680** |

# الفهرس

**هذا الكتاب**.. استكمال للجزء الأول، الذي حاول الباحث فيه أن يعرض لقصة الحضارة، والعوامل المؤثرة في التحضر، ويرصد مسارات حركة التحضر، ويقدم نبذاً من الرؤى المتعددة والرئيسة لدورات التحضر، على المستوى الإسلامي والعالمي، مما يكاد يشكل مسحًا للمكتبة الحضارية، قد يتجاوز أحيانًا الاقتصار على الإحالة إلى المراجع إلى مساحات مقتبسة منها، ولعله أراد بذلك التقدم بخطوات أكثر باتجاه القارئ، الذي لابد أن يترك لجهده استكمال بعض الجوانب كشريك في العملية الثقافية.

وفي هذا الجزء، محاولة للإحاطة بالرؤية الإسلامية، وبعض خصائصها التي أهلتها للشهود الحضاري على الذات و(الآخر).

ويبقى ملف الشهود الحضاري مفتوحًا استمرار التاريخ على الأرض، وهو محتاج بطبيعته لاستكمال شعبه المعرفية وأدوات بحثه واستصحاب قيم الوحي لهداية العقل.. وسوف لا تتوقف المسؤولية الحضارية، حتى تتوقف الحياة، بكل مناشطها وسقوطها ونهوضها.. وستبقى قيم النبوة الخالدة البعيدة عن وضع البشر وعبثهم وأهوائهم، هي الشاهد على البشر جميعًا، سواء في ذلك أمة الاستجابة أم أمة الدعوة.

موقعنا على الإنترنت www.islam.gov.qa
البريد الإلكتروني E-Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa